أمراض القلوب وشفاؤها

أمراض القلوب وشفاؤها

يليها

التحفة العراقية في الأعمال القلبية

تأليف شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

(٦٦١ - ٧٢٨)

شرحه وقدم له وأخرج آياته

الدكتور محمود مطرجي

دار القلم

ص.ب : ٣٨٧٤

بيروت - لبنان

جميع حقوق الطبع والصف والاخراج
محفوظة
لدار القلم للطباعة والنشر والتوزيع
لصاحبها احمد اكرم الطباع

بيروت - لبنان - ص. ب: ٣٨٧٤

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ ابن تيمية

(٦٦١-٧٢٨هـ) (١٢٦٣-١٣٢٩م)

حياته

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري، الحرّاني الدّمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيميّة.

وُلد في العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ بحرّان، وانتقل به أبوه إلى الشّام سنة ٦٦٧ هـ في الوقت الذي كانت جحافلُ التتار تزحفُ على بلاد الشّام.

انكبّ على طلب العلمِ، فابتدأ بحفظ كتاب الله، وتعلّم الخطّ، والحسابَ، ولغةَ الضاد، وسمع الحديثَ ونظر في الرجال والطبقات، وغاص في المعاني، واستنبط أشياء لم يسبق إليها، وخبر الرجال وطبقاتهم، وأحاط بأصول الفقه واختلاف مذاهبه، وفتاوي الصحابة والتابعين حتى قال الحافظ أبو الحجاج المزّي: «ما رأيتُ مثلهُ، ولا رأى هو مثل نفسه، ما رأيتُ أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منهُ».

وشرع بالإفتاء وله أقلّ من تسع عشرة سنة، وقد طار صيتُه في الآفاق. خاض في الفلسفة وعلومها ليكشف أسرارها، واطلع على آراء المتكلمين وأصحاب الطرق من المتصوّفين ليكشف دخائل مذاهبهم، وينبّه

الناس من شذوذ طرقهم، وليخمد بدعهم، ويبطل كراماتهم.

ويجاهدُ في سبيل الله المغول الذين دنّسوا أرض الإسلام، فيسعى إلى جمع جيش مصر مع جيش الشام ضد الخطر المغولي، وتبلغ شجاعتهُ ذروتها عام ٦٩٩ هـ عندما أرسل إلى نائب القلعة يطلبُ منه «لو لم يبق إلا حجر واحد فلا تسلّمهم ـ أي للمغول ـ ذلك أن استطعت».

ويتأسّى برسول الله ﷺ القائل: «لتأمرنّ بالمعروف، ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو لَيُوشكنّ اللَّهُ أن يبعث عليكم منه، ثمّ تدعونه فلا يُستجاب لكم».

فإذا به يدور مع أصحابه على الحانات والخمارات، محطماً دنانها، مريقاً خمورها، ويتوجّه إلى المتوسلين بغير الله أصحاب الطرق الذين اتخذوا من مسجد التاريخ صخرةً بنهر «قلوط» يزورونها ليحطمّها ويريح المسلمين والدين منها، ومن الشرك بها.

هذه المواقف المؤمنة الجريئة دفعت الخصوم من الفقهاء والمتصوّفة وأصحاب البدع إلى المجاهرة بمعاداته، يعيبون عليه معاداته لأقطاب المتصوّفة، ويتهمّونه بالتفرد وببعض الشذوذ في مسائل أحجم عنها الأوّلون فجسر هو عليها.. ولم يبالِ بالاتّهامات بل كان يصدعُ بالحقّ الذي أدّاه إليه اجتهاده.

وقام أصحاب الطريقة الأحمدية في التصوف يموّهون على الناس بكراماتهم، إلا أنّ شيخنا الذي لا يجامل ولا يداهنُ أخمد بدعتهم، وأبطل ادعاءاتهم وكراماتهم.. فوشوا به إلى السلطان في القاهرة.

وتنجح الوشاية، ويستدعيه سلطانُ مصر ليحبسهُ في برجٍ أياماً ثمّ يرميه في سجن الجبّ عاماً وبضعة أشهر.

ويخرج الشيخ ابن تيميّة من السجن إلى القاهرة حيث يقرىءُ العلم لطالبيه، فيتحلّق حولهُ المؤمنون وطلاّبُ المعرفة، وتتّسع حلقته العلمية لتصبح مقصد الجميع، وينفضّ الطلاّبُ عن باقي الشيوخ.

إلا أنّ الشيخ الذي عرف بأنه لا تأخذه في الحقّ لومة لائم قام يحملُ على طرق الصوفية وقطبهم ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود، مما دعا شيوخ الطرق إلى معاداته، والعمل على إدخاله السجن بعد استجابة الظاهر بيبرس لادّعاءاتهم.

ويعود الملك المظفّر قلاوون إلى سلطنته فيأمر بإخراج الشيخ من السجن، ويستشيره في أمر خصومه، إلا أنّ الشيخ عفا عنهم فقال أعداؤه: «سعينا في دمه، فلمّا قدر علينا عفا عنّا».

ويعود في سنة ٧١٢ هـ إلى دمشق فيتفرّغ لنشر العلم لا يسعُه كتمانه، ويبوح باعتراضاته واتهاماته لأصحاب الطرق الذين يسافرون إلى أضرحة الأولياء، مُعتبراً أنّ هذه الزيارات من أشنع المعاصي.

ويشي به خصومه إلى السلطان، فيأمر باعتقاله سنة ٧٢٦ هـ في سجن القلعة حيث يتفرّغ للعبادة والتلاوة، ويفارق الحياة بعد مرض دام عشرين يوماً ليلة الاثنين العشرين من شهر ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ.

٢ ـ تصدير عام

يعالجُ الشيخُ الإمام في هذا الكتاب القلوب وأمراضها، وشفاءها بأدوية الإيمان والعبادات والطاعات، ومحبة الله وخشيته. . .

فالقلبُ يفسدُ بالجهل فيدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه. والقلب يموتُ بالجهل إذا وردت عليه شبهة أو شهوة. وخيرُ دواء القرآن الكريم فهو شفاء ما في الصدور والقلوب من الشهوات والشّبهات، وفيه البيّنات التي تزيل الباطل وأمراض الشبهة المفسدة للعلم والادراك، وفيه من المواعظ ما يوجبُ صلاح القلوب.

وصلاحُ القلوب استنارتُها بالصلاة والصوم والحج والزكاة، فإذا صلح القلبُ أبصر وسمع وعقل. . .

وقد خلقَ اللّهُ سبحانهُ وتعالى القلب لأجل حبّ الله، وهو الفطرة التي

فطر عليها عباده. فقد فطر عباده على محبته وعبادته وحده، وإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلبُ عارفاً بالله ومحبّاً لله وحده. وتفسدُ هذه الفطرةُ بالشرك والمعاصي والبدع، ولا تصلح إلا بالعودة إلى الإيمان والتوحيد.

ويرتقي الشيخُ في دروب المحبة فيرى أنّ القلب إذا كان محباً لله، مخلصاً له الدّين لم يبتل بِحبّ غيره، وأنّ القلب إذا ابتلى بمحبّة غير الله فلنقص محبته لله وحده وتوحيده، لأن القلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفانه عن العشق:

أحدهما: إنابتُه إلى الله ومحبته له، فلا تبقى مع محبة الله محبّة لمخلوق تزاحمه، وذلك ألذّ وأطيب من كلّ شيء.

وثانيهما: خوفه من الله، فإنّ الخوف المضاد للعشق يصرفه. فإذا كان اللَّهُ أحبّ إلى العبد من كلّ شيءٍ، وأخوف عنده من كل شيءٍ لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة، أو عند ضعف هذا الحب، وذلك بترك بعض الواجبات أو فعل بعض المحرّمات، لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. فإذا فعل العبدُ الطاعة محبّة لله وخوفاً منه، وترك المعصية حباً له وخوفاً منه، قوي حبّه له وخوفه منهُ، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره.

وسبيلُ ذلكَ: العلم والإيمان والذكر والتفكّر والعبادات المشروعة، وعندها تزال الشبهات بالبيّنات.

هذه الحقائق المستقاة من طبيعة الإيمان هي ما أقرّها الصحابةُ، وسار عليها السّلفُ الصالحُ اقتداءً برسول الله ﷺ، وعدم تعارضها مع طبيعة التوحيد الذي هو الأساس في كل دواءٍ من أدوية القلوب والأرواح.

ويهاجم الشيخ الإمام أصحاب الطرق والمقامات والأحوال الذين حوّلوا القلب، والعشق، والمحبّة، والشوق، والهوى، والميل، والخشية، التقوى، والزهد، والتوكل... إلى معانٍ غير مشروعةٍ ترتبط بالسكر

والواردات، وتكون غايتها الفناء والبقاء، وثمرتها الحلول والاتحاد، وادّعاء الولاية والقطبية والغوثية.

وقد سبقهُ في هذا الموقف أبو نصر السرّاج (ت ٣٧٨) هـ الذي هاجم المتصوّفين المنحرفين لابتعادهم عن أصول الشريعة وأحكامها، وعنايتهم بالسّماع والرقص، واتخاذ الدّعوات، ومعرفة صياغة الألحان بالأصوات الطيّبة.. ولأنهم فضلوا الولاية على النبوّة، وطمعت نفوسهم إلى المحظور على المسلمين واعتباره مباحاً لهم، ولم يراعوا الحدود والآداب فتوهمّوا أنّ بينهم وبين الله عزّ وجل حالاً من القرب والدنو... والشيخ الإمام عرض في غير هذا الكتاب، وخاصة في فتاويه ـ لهؤلاء المارقين والخارجين على الدين، الخارجين عن السنّة. «فمنهم من يقول: إنّ الغوث هو القطب الجامعُ في الوجود، وأنه مدُّ الخلائق في رزقهم، ونصرُ لهم. وهذا كفر بالاتفاق ولا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ، ولا قاله أحدٌ من سلف الأمة ولا أئمتها»[١] و«أن القطب يقدر على ما يقدر عليه اللَّهُ فهذا كفر قبيح وجهل صريح»[٢].

وكذلك من قال: إنّ الأولياء أفضل من جميع الخلق «هو أضل خلق الله. لأنّ الأنبياء والرسّل أفضل خلق الله، وأنّ محمداً ﷺ سيّد ولد آدم»[٣].

ويشتد تكفيره للحلاج الذي ادّعى حلول الألوهية فيه كما ادعى النصارى في المسيح، وابن عربي صاحب نظرية وحدة الوجود الذي يرى الحق عين الخلق، وأن الفاجر التلمساني الذي يصرّح «بأن ذات الحيوان عين وجوده تعالى عمّا يقولون»[٤] وهو أخبث القوم وأعمقهم بالكفر لعدم تمييزه بين الوجود والثبوت.

---

(١) مختصر الفتاوي المصرية: لابن تيميّة: ص ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٢) المرجع السابق: ص ١٩٩.
(٣) المرجع السابق: ص ٥٦٠.
(٤) مجموعة الرسائل الكبرى: الرسالة السابعة ـ الوصية الكبرى.

وكذلك ابن سبعين القائل بوحدة الوجود صاحبُ المقالات الملعونة، وابن الفارض الذي هو أقرب إلى التلمساني.

والخلاصة أنّ ابن تيمية يهاجم الانحرافات التي جاء بها أصحاب الطرق والذين مزجوا الروحانيات بمبادىء الشرك والالحاد، وخرجوا بالمعاني القلبية عن معناها الاسلامي النقي الصافي إلى معانٍ تجهرُ بالكفر والحلول والاتحاد والوحدة. وينتهي الشيخ الإمام في كتابه هذا إلى أنه من الواجب أن توزن أحوال الصوفية بميزان الشرع، فإنْ وافقته كانت صحيحة وإلا كانت بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد، فهذا كتابٌ يعالج أمراض القلوب التي فسدت بالجهل والشبّهات والشهوات... ويكونُ دواؤها بالقرآن والسنة، واستنارتها بالصلاة والصوم والحج...

تقدّمه دار القلم وصاحبها الأستاذ أحمد أكرم الطباع إلى قراء الإسلام، عسى أن يكون لهم هداية ورشداً والله ولي التوفيق.

د. محمود مطرجي

التحفة العراقية في الأعمال القلبية

تأليف شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

(٦٦١ - ٧٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً.

فصل
في أمراض القلوب وشفاؤها

قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿**في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضاً**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**ليجعل ما يُلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرضٌ والقاسيةِ قلوبُهُمْ**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمرجفون في المدينة لنُغرينّك بهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً**﴾[3]. وقال: ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون: ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾[4]؟ وقال تعالى: ﴿**قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمةٌ للمؤمنين**﴾[5]. وقال: ﴿**وننزّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين، ولا يزيدُ الظالمين إلا خسارا**﴾[6]. وقال: ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم﴾[7].

و(**مرض البدن**) خلاف صحته وصلاحه، وهو فساد يكون فيه؛ يفسد

---

(١) سورة البقرة: ١٠.

(٢) سورة الحج: ٥٣.

(٣) سورة الأحزاب: ٦٠.

(٤) سورة المدثر: ٣١.

(٥) سورة يونس: ٥٧.

(٦) سورة الاسراء: ٨٢.

(٧) سورة التوبة: ١٤ ـ ١٥.

به إدراكه وحركته الطبيعية: فإدراكه إما أن يذهب كالعمى والصمم، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلو مراً، وكما يخيل إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج. وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته عن الهضم، أو مثل أن يبغض الأغذية التي يحتاج إليها، ويحب الأشياء التي تضره، ويحصل له من الآلام بحسب ذلك، ولكن - مع ذلك المرض - لم يمت ولم يهلك به فيه نوع قوة على إدراك الحركة الإرادية في الجملة (فيتولد من ذلك) ألم يحصل في البدن إما بسبب فساد الكمية أو الكيفية: فالأول إما لنقص المادة فيحتاج إلى غذاء، وإما بسبب زيادتها فيحتاج إلى استفراغ. والثاني كقوة في الحرارة والبرودة خارج عن الاعتدال فيداوي.

وكذلك (**مرض القلب**) هو نوع فساد يحصل له، يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه. وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ويحب الباطل الضار. فلهذا يفسر «المرض» تارة بالشك والريب، كما فسر مجاهد[1] وقتادة[2] قوله: ﴿**في قلوبهم مرض**﴾[3] أي شك، وتارة يفسر بشهوة الزنا، كما فسر به قوله: ﴿**فيطمع الذي في قلبه مرض**﴾[4] ولهذا صنف الخرائطي[5] (كتاب اعتلال القلوب أي مرضها)، وأراد به مرضها بالشهوة.

---

(١) مجاهد بن جبير أبو الحجاج المكيّ مولى بني مخزوم (٢١ - ١٠٣) هـ. تابعي جليل، أخذ التفسير من ابن عبّاس. وقال عنه الذهبي: هو شيخ القرّاء والمفسّرين.

(٢) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسي البصري (٦١ - ١١٨) هـ. حافظ ثقة وضرير، أكمه، قال عنه الامام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة، مات في واسط بالطاعون.

(٣) سورة البقرة: ١٠.

(٤) سورة الأحزاب: ٣٢.

(٥) محمد بن جعفر بن محمد بن سهل (٢٤٠ - ٣٢٧) هـ من حفّاظ الحديث، توفي في يافا. من كتبه: اعتدال القلوب، ومكارم الأخلاق، ومساوىء الأخلاق، وفضيلة الشكر...

والمريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح: فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض. والمرض - في الجملة - يضعف المريض بجعل قوته ضعيفة لا تطيق ما يطيقه القوي. والصحة تحفظ بالمثل، وتزال بالضد. والمرض يقوى بمثل سببه، ويزول بضده. فإذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه، وزاد ضعف قوته، حتى ربما يهلك. وإن حصل له ما يقوى القوة ويزيل المرض كان بالعكس.

و (**مرض القلب**) ألم يحصل في القلب، كالغيظ من عدو استولى عليك، فإن ذلك يؤلم القلب، قال الله تعالى: ﴿**ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم**﴾[1]، فشفاهم بزوال ما حصل في قلوبهم من الألم، ويقال: فلان شفي غيظه، وفي القود استشفاء أولياء المقتول، ونحو ذلك، فهذا شفاء من الغم والغيظ والحزن. وكل هذه آلام تحصل في النفس، وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب، قال النبي ﷺ «هلا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإن شفاء العي السؤال»[2]، والشاك في الشيء المرتاب فيه يتألم قلبه، حتى يحصل له العلم واليقين، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق: قد شفاني بالجواب.

و (**المرض**) دون الموت، فالقلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل: فله موت، ومرض، وحياة، وشفاء. وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه. فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه، وإن حصلت له حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه، قال تعالى: ﴿**ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض**﴾[3]، لأن ذلك أورث شبهة عندهم، والقاسية

---

(١) سورة التوبة: ١٤.

(٢) مسند أبي داود: باب الطهارة، وسنن ابن ماجة: باب الطهارة، ومسند الإمام ابن حنبل: ١، ٢٨٠.

(٣) سورة الحج: ٥٣.

قلوبهم ليبسها، فأولئك قلوبهم ضعيفة بالمرض، فصار ما ألقى الشيطان فتنة لهم، وهؤلاء كانت قلوبهم قاسية عن الإيمان، فصار فتنة لهم. وقال: **﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة﴾**(١) كما قال: **﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾**(٢) لم تمت قلوبهم كموت (قلوب) الكفار والمنافقين، وليست صحيحة صالحة كصالح قلوب المؤمنين، بل فيها مرض شبهة وشهوات. وكذلك **﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾**(٣) وهو مرض الشهوة، فإن القلب الصحيح لو تعرضت له المرأة لم يلتفت إليها، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه، فإذا خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض.

و (**القرآن**) شفاء لما في الصدور ومن قلبه أمراض الشبهات والشهوات، ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره، فيبقى القلب محباً للرشاد، مبغضاً للغي، بعد أن كان مريداً للغي، مبغضاً للرشاد. فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، حتى يصلح القلب فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده، كما يغتذي البدن بما ينميه ويقومه، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن.

و (**الزكاة**) في اللغة: النماء، والزيادة في الصلاح، يقال: زكا

---

(١) سورة الأحزاب: ٦٠.

(٢) سورة المدثر: ٣١.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٢.

الشيء، إذا نما في الصلاح. فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد، حتى يكمل ويصلح. كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له. ولا بد - مع ذلك - من منع ما يضره. فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره. وكذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا.

و (**الصدقة**) لما كانت تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، صار القلب يزكو بها، وزكاته معنى زائد على طهارته من الذنب، قال الله تعالى: ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾[1]، وكذلك ترك الفواحش يزكو به القلب. وكذلك ترك المعاصي، فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، ومثل الدغل في الزرع، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة - كاستخراج الدم الزائد - تخلصت القوة الطبيعية واستراحت، فينمو البدن. وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغاً من تخليطاته حيث خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه، فزكاة القلب بحيث ينمو ويكمل، قال تعالى: ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**وإن قيل لكم ارجعوا، فارجعوا، هو أزكى لكم**﴾[3]، وقال: ﴿**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعون**﴾[4]، وقال تعالى: ﴿**قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى**﴾[5]وقال تعالى: ﴿**قد أفلح من زكاها، وقد خاب من**

---

(١) سورة التوبة: ١٠٣.
(٢) سورة النور: ٢١.
(٣) سورة النور: ٢٨.
(٤) سورة النور: ٣٠.
(٥) سورة الأعلى: ١٤ - ١٥.

دساها﴾[1]، وقال تعالى: **﴿وما يدريك لعله يزكى﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿فقل هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى﴾**[3]. فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير، فإنما تحصل بإزالة الشر، فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا.

وقال: **﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾**[4] وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وإثبات إلهية الحق في القلب، وهو حقيقة «لا إله إلا الله» وهذا أصل ما تزكو به القلوب.

و **(التزكية)**: جعل الشيء زكياً، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر، كما يقال «عدلته» إذا جعلته عدلاً في نفسه، أو في اعتقاد الناس. قال تعالى: **﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾**[5] أي تخبروا بزكاتها. وهذا غير قوله: **﴿قد أفلح من زكاها﴾**[6]، ولهذا قال: **﴿هو أعلم بمن اتقى﴾**[7]. وكان اسم زينب «برة» فقيل: تزكى نفسها فسماها رسول الله ﷺ زينب[8]، وأما قوله: **﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم، بل الله يزكي من يشاء﴾**[9] أي يجعله زاكياً ويخبر بزكاته، كما يزكي المزكي الشهود بعدلهم.

و **(العدل)** هو الاعتدال، والاعتدال هو صلاح القلب، كما أن الظلم فساده ولهذا جميع الذنوب يكون الرجل فيها ظالماً لنفسه، والظلم خلاف

---

(١) سورة الشمس: ٩ ـ ١٠.
(٢) سورة عبس: ٣.
(٣) سورة النازعات: ١٨ ـ ١٩.
(٤) سورة فصّلت: ٦، ٧.
(٥) سورة النجم: ٣٢.
(٦) سورة الشمس: ٩.
(٧) سورة النجم: ٣٢.
(٨) صحيح البخاري كتاب الأدب.
(٩) سورة النساء: ٤٩.

العـدل، فلم يعـدل على نفســه بـل ظلمهــا، فصـلاح القلب في العــدل، وفساده في الظلم، وإذا ظلم العبـد نفسه فهـو الظالم وهـو المظلوم، كـذلك إذا عدل فهو العادل والمعدول عليـه، فمنه العمـل، وعليه تعـود ثمرة العمـل من خير وشر. قال تعالى: ﴿**لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت**﴾[1].

و (**العمل**) له أثر في القلب ـ من نفع، وضـر، وصلاح ـ قبـل أثره في الخارج، فصلاحهـا عدل لها، وفسادها ظلم لها، قـال تعالى: ﴿**من عمـل صـالحاً فلنفسـه، ومن أساء فعليهـا**﴾[2] وقال تعـالى: ﴿**إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أسـأتم فلها**﴾[3]. قـال بعض السلف «إن للحسنـة لنـوراً في القلب، وقـوة في البدن، وضيـاء في الوجـه، وسعة في الـرزق، ومحبـة في قلوب الخلق. وإن للسيئة لظلمـة في القلب، وسواداً في الـوجه، ووهنـاً في البـدن، ونقصاً في الـرزق، وبغضـاً في قلوب الخلق» وقـال تعـالى: ﴿**كـل امـرىء بمــا كسب رهين**﴾[4]، وقــال تعــالى: ﴿**كـل نفس بمــا كسبت رهينـة**﴾[5]، وقال: ﴿**وذكـر به أن تبسـل نفس بما كسبت ليس لهـا من دون الله ولي ولا شفيـع. وإن تعـدل كـل عـدل لا تؤخــذ منهـا، أولئــك الـذين ابسلوا بمــا كسبـوا**﴾[6]. و«تبســل» أي تـرتهن وتحبس وتؤسـر، كمـا أن الجسـد إذا صح من مـرضه قيـل: قـد اعتـدل مـزاجـه، والمـرض إنمـا هـو انحـراف المزاج، مـع أن الاعتـدال المحض السـالم من الأخـلاط لا سبيـل إليـه، ولكن الأمثل فـالأمثـل، فهكـذا صحـة القلب وصـلاحـه في العـدل، ومرضه من الزيغ والظلم والانحراف. والعـدل المحض في كل شيء متعـذر علماً وعملاً، ولكن الأمثل فالأمثل، ولهذا يقال: هذا أمثـل، ويقال للطريقـة السلفيـة «الطريقـة المثلى»، وقال تعـالى: ﴿**ولن تستطيعـوا أن تعـدلـوا بين**

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٢) سورة فصلت: ٤٦.

(٣) سورة الاسراء: ٧.

(٤) سورة الطور: ٢١.

(٥) سورة المدثر: ٣٨.

(٦) سورة الأنعام: ٧٠.

النساء ولو حرصتم﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط، لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾(٢). والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط، وأعظم القسط: عبادة الله وحده لا شريك له، ثم العدل على الناس في حقوقهم، ثم العدل على النفس.

و (الظلم) ثلاثة أنواع، والظلم كله من «أمراض القلوب»، والعدل صحتها وصلاحها. قال أحمد بن حنبل[٣] لبعض الناس «لو صححت لم تخف أحداً»، أي خوفك من المخلوق هو من «مرض» فيك، كمرض الشرك، والذنوب.

وأصل (صلاح القلب) هو حياته، واستنارته. قال تعالى: ﴿أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾(٤)؟ لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها وموتها وظلمتها في غير موضع، كقوله: ﴿لينذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ـ ثم قال ـ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه إليه تحشرون﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي﴾(٧)، ومن أنواعه أنه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. وفي الحديث الصحيح «مثل البيت يذكر الله فيه والبيت الذي

---

(١) سورة النساء: ١٢٩.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٢.

(٣) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثمّ البغدادي (١٦٤ ـ ٢٤١) هـ انفرد بمعرفة آثار الصحابة والتابعين مع الضبط التام والورع الكامل. ويعدُّ من امراء المؤمنين في الحديث، وقد عصمهُ الله من البدعة وهي محنة خلق القرآن، وأعظم كتبه المسند.

(٤) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٥) سورة يسن: ٧٠.

(٦) سورة الأنفال: ٢٤.

(٧) سورة الروم: ١٩.

لا يـذكر الله فيـه كمثل الحي والميت»(١)، وفي الصحيـح أيضـاً «اجعلوا من صـلاتكم في بيوتكم، ولا تتخـذوها قبـوراً»(٢). وقد قـال تعـالى: ﴿**والـذين كـذبوا بـآياتنـا صم وبكم في الظلمـات**﴾(٣)، وذكر سبحـانه آيـة النـور وآيـة الـظلمـة فقـال: ﴿**الله نـور السمـاوات والأرض، مثـل نـوره كمشكـاة فيهـا مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنهـا كوكب دري يـوقد من شجـرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غـربية، يكـاد زيتها يضيء ولـو لم تمسسه نـار، نـور على نـور**﴾(٤) فهـذا مثـل نـور الايمـان في قلوب المؤمنين، ثم قــال: ﴿**والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الـظمآن مـاء حتى إذا جاءه لم يجـده شيئـاً، ووجـد الله عنـده فـوفـاه حسـابـه، والله سـريـع الحسـاب. أو كـظلمات في بحـر لجي يغشاه مـوج، من فوقـه موج، من فـوقـه سحـاب: ظلمـات بعضها فـوق بعض، إذا أخرج يـده لم يكد يـراها، ومن لم يجعـل الله له نوراً فما له من نـور**﴾(٥). فالأول مثـل الاعتقادات الفـاسدة والأعمـال التابعة لها، يحسبها صاحبها شيئاً ينفعه، فإذا جاءهـا لم يجدهـا شيئاً ينفعـه، فـوفاه الله حسـابـه على تلك الأعمـال. والثـاني مثـل للجهـل البسيط وعـدم الإيمان والعلم، فإن صاحبها في ظلمـات بعضها فـوق بعض لا يبصر شيئـاً، فـإن البصر إنمـا هو بنـور الإيمان والعلم، قـال تعالى: ﴿**إن الـذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تـذكروا، فـإذا هم مبصرون**﴾(٦)، وقـال تعالى: ﴿**ولقـد همت بـه وهمَّ بهـا، لـولا أن رأى بـرهـان ربـه**﴾(٧) وهـو بــرهـان الإيمـان الذي حصـل في قلبه، فصـرف الله بـه مـا كـان هم بـه؛ وكتب لـه حسنة كاملة، ولم يكتب عليـه خطيئـة، إذ فعل خيـراً ولم يفعل سيئـة، وقال

---

(١) ذكره مسلم في صحيحه: كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) في صحيح البخاري: كتـاب الصـلاة عن ابن عمـر رضي الله عنهمـا، عن النبي ﷺ قـال: اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم ولا تتخذّوها قبوراً».وصحيح مسلم: كتاب المساجد.

(٣) سورة الأنعام: ٣٩.

(٤) سورة النور: ٣٥.

(٥) سورة النور: ٣٩. ٤٠.

(٦) سورة الأعراف: ٢٠١.

(٧) سورة يوسف: ٢٤.

تعالى: ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾(1) وقال: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾(2)، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾(3).

ولهذا ضرب الله للإيمان مثلين: مثلاً بالماء الذي به الحياة وما يقترن به من الزبد، ومثلاً بالنار التي بها النور وما يقترن بما يوقد عليه من الزبد. وكذلك ضرب الله للنفاق مثلين: قال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها، فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله، كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال﴾(4)، وقال تعالى في المنافقين: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون: صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم، كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن الله على كل شيء قدير﴾(5)، فضرب لهم مثلاً بالذي أوقد النار، كلما أضاءت أطفأها الله، والمثل المائي كالماء النازل من السماء وفيه ظلمات ورعد وبرق. ولبسط الكلام في هذه الأمثال موضع آخر، وإنما المقصود هنا ذكر حياة القلوب وإنارتها. وفي الدعاء المأثور «اجعل القرآن ربيع

(1) سورة ابراهيم: ١.
(2) سورة البقرة: ٢٥٧.
(3) سورة الحديد: ٢٨.
(4) سورة الرعد: ١٧.
(5) سورة البقرة: ١٧ـ ٢٠.

قلوبنا ونور صدورنا»، والربيع هو المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات، قال النبي ﷺ «إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم»[1]، والفصل الذي ينزل فيه أول المطر تسميه العرب الربيع، لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه، وغيرهم يسمى الربيع الفصل الذي يلي الشتاء، فإن فيه تخرج الأزهار التي تخلق منها الثمار، وتنبت الأوراق على الأشجار.

و (القلب الحي) المنور، فإنه ـ لما فيه من النور ـ يسمع ويبصر ويعقل، والقلب الميت فإنه لا يسمع، ولا يبصر. قال تعالى: **﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾**[2] وقال تعالى: **﴿ومنهم من يستمعون إليك، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون؟ ومنهم من ينظر إليك، أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون﴾**[3]؟ وقال تعالى: **﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾**[4] الآيات، فأخبر أنهم لا يفقهون بقلوبهم، ولا يسمعون بآذانهم، ولا يؤمنون بما رأوه من النار. كما أخبر عنهم حيث قالوا: ﴿..

---

(١) البخاري: الجهاد، والزكاة، والرقاق: حدّثنا عطاء بن يسار أنه سمع أبا سعيد الخدري رضي الله عنهُ يحدّثُ أنّ النبي ﷺ جلس ذات يومٍ على المنبر وجلسنا حوله فقال: اني ممّا أخافُ عليكم من بعدي ممّا يُفتح عليكم من زهْرةِ الدنيا وزينتها، فقال رجل: يا رسول الله، أو يأتي الخيرُ بالشرّ؟ فسكت النبي ﷺ فقيل له: ما شأنُك تُكلمُ النبيّ ﷺ ولا يكلّمك؟ فرأينا أنه يُنْزَلُ عليه قال: فمسح عنهُ الرُّحضاء فقال: أين السائل وكأنّه حمده فقال: إنّهُ لا يأتي الخيرُ بالشرّ، وإنّ ممّا ينبتُ الربيعُ يقتلُ أو يُلمُّ: إلا آكلة الخضراء. أكلتْ حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلتْ عينَ الشمسِ فثلطتْ وبالتْ ورتعتْ وإنّ هذا المال خَضِرةٌ حلوة، فنعِمْ صاحبُ المسلم، ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السّبيل..».

(٢) سورة البقرة: ١٧١.

(٣) سورة يونس: ٤٢.

(٤) سورة الأنعام: ٢٥.

قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب﴾[1]، فذكروا الموانع على القلوب والسمع والأبصار، وأبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص، لكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم: لها سمع وبصر، وهي تأكل وتشرب وتنكح. ولهذا قال تعالى: **﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾**(٢)، فشبههم بالغنم التي ينعق بها الراعي وهي لا تسمع إلا نداء، كما قال في الآية الأخرى: **﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً﴾**(٣)، وقال تعالى: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل﴾**[4]. فطائفة من المفسرين تقول في هذه الآيات وما أشبهها كقوله: **﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً. فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾**(٥) وأمثالها مما ذكر الله في عيوب الإنسان وذمها، فيقول هؤلاء: هذه الآية في الكفار، والمراد بالإنسان هنا الكافر، فيبقى من يسمع ذلك يظن أنه ليس لمن يظهر الإسلام في هذا الذم والوعيد نصيب، بل يذهب وهمه إلى من كان مظهراً للشرك من العرب، أو إلى من يعرفهم من مظهري الكفر كاليهود والنصارى ومشركي الترك والهند ونحو ذلك، فلا ينتفع بهذه الآيات التي أنزلها الله ليهتدي بها عباده. فيقال أولاً: المظهرون للإسلام فيه مؤمن ومنافق، والمنافقون كثيرون في كل زمان. والمنافقون في الدرك الأسفل من النار. ويقال ثانياً: الإنسان قد يكون عنده شعبة من نفاق وكفر، وإن كان معه إيمان، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً،

---

(٣) سورة فصّلت: ٥.

(٢) سورة البقرة: ١٧١.

(٣) سورة الفرقان: ٤٤.

(٤) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٥) سورة يونس: ١٢.

ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[1]، فأخبر أنه من كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق، وقد ثبت في الحديث الصحيح أنه قال لأبي ذر[2]: «إنك امرؤ فيك جاهلية»[3]. وأبو ذر رضي الله عنه من أصدق الناس إيماناً. وقال في الحديث الصحيح: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة، والاستسقاء بالنجوم»[4] وقال في الحديث الصحيح: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن»[5]؟ وقال أيضاً في الحديث الصحيح «لتأخذن أمتي ما أخذت الأمم قبلها. شبراً بشبر، وذراعاً بذراع. قالوا: فارس والروم؟ قال: ومن الناس إلا هؤلاء»؟[6] وقال ابن أبي مليكة[7]: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الايمان: «عن عبد الله بن عمرو»، وصحيح مسلم: باب الإيمان.

(٢) أبو ذر الغفاري جُنْدَب بن جُنَادة وهو منسوب الى جده جُنادة من غِفار (ت ٣٢) هـ. وهو من خامس السابقين إلى الإسلام، بايع النبي على ألّا تأخذه في الحقّ لومة لائم.

(٣) صحيح البخاري: باب الايمان وباب الأدب، وصحيح مسلم: باب الايمان وباب الأدب.

(٤) صحيح مسلم: باب الجنائز: أبو مالك الأشعري حدّث أن النبي ﷺ قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهُنّ: الفخر في الأحساب، والطعنُ في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال: النّائحة إذا لم تتبْ قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال، من قطران.

(٥) البخاري: باب الاعتصام: عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: لَتَتْبَعُنَّ سنَن مَن كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً بذراعاً حتى لو دخلوا جُحْر ضبٍ تبعتُمُوهُم، قلنا: يا رسول الله اليهودَ والنصارى، قال: فمنْ.
ومسند الإمام أحمد بن حنبل: ٤، ١٥٢.

(٦) صحيح البخاري: باب الاعتصام: لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراع، فقيل يا رسول الله كفارس والروم؟ فقال: ومن الناسُ إلا أولئك؟

(٧) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة التميمي المكي (ت ١١٧) هـ. قاضٍ ومن رجال الحديث الثقات، ولّاه ابن الزبير قضاء الطائف.

النفاق على نفسه. وعن علي ـ أو حذيفة ـ رضي الله عنهما قال: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن. وقلب أغلف، فذاك قلب الكافر. وقلب منكوس، فذاك قلب المنافق. وقلب فيه مادتان: مادة تمده الإيمان، ومادة تمده النفاق، فأولئك قوم خلطوا عملاً صالحاً، وآخر سيئاً»(١).

وإذا عرف هذا علم أن كل عبد ينتفع بما ذكر الله في الإيمان من مدح شعب الإيمان وذم شعب الكفر. وهذا كما يقول بعضهم في قوله ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾(٢)، فيقولون: المؤمن قد هدى إلى الصراط المستقيم، فأي فائدة في طلب الهدى؟ ثم يجيب بعضهم بأن المراد: ثبتنا على الهدى، كما تقول العرب للنائم: نم حتى آتيك. أو يقول بعضهم: ألزم قلوبنا الهدى، فحذف الملزوم. ويقول بعضهم زدني هدى. وإنما يوردون هذا السؤال لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه، فإن المراد به العمل بما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، في جميع الأمور.

والإنسان وإن كان أقر بأن محمداً رسول الله، وأن القرآن حق على سبيل الإجمال فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره، وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفه، وما عرفه فكثير منه لم يعمله. ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهى في القرآن والسنة، فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك، لا يذكر ما يخص به كل عبد. ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم، والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله: يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلاً، ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات، ويتناول إلهام العمل بعلمه، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه، ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية: ﴿إنا

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣، ١٧.

(٢) سورة فاتحة الكتاب: ٥.

فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك، ويهديك صراطاً مستقيماً﴾[١]، وقال في حق موسى وهارون: **﴿وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم﴾**[٢].

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية، والعلمية الاعتقادية، والعملية، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمداً حق، والقرآن حق، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا. ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه، و[لا] يحتذون حذوه، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال لفعلوا ما أمروا به، وتركوا ما نهوا عنه. والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين، كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء[٣] في كل صلاة، مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائماً في أن يهديهم الصراط المستقيم. فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين، قال سهل بن عبد الله التستري[٤]: ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار. وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل. وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط.

وقول من قال: زدنا هدى يتناول ما تقدم، لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم، فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد، ولا يكون مهتدياً حتى يعمل في المستقبل بالعلم، وقد لا يحصل العلم في المستقبل، بل يزول عن القلب وإن حصل فقد لا يحصل العمل، فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء[٥]، ولهذا فرضه

---

(١) سورة الفتح: ١ ـ ٢.
(٢) سورة الصافات: ١١٧.
(٣) وهو ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.
(٤) سهْل التستري بن عبد الله بن يونس، أبو محمد (٢٠٠ ـ ٢٨٣) هـ أحد أئمة الصوفية وأعلامهم، والمتكلمين في علوم الإخلاص وعيوب الأفعال، له كتاب: رقائق المحبين.
(٥) الدعاء هو: اهدنا الصراط المستقيم.

الله عليهم في كل صلاة، فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق[1] وسائر ما تطلب النفوس من السعادة، والله أعلم.

وأعلم أن (حياة القلب) وحياة غيره ليست مجرد الحس والحركة الإرادية، أو مجرد العلم والقدرة كما يظن ذلك طائفة من النظار في علم الله وقدرته كأبي الحسين البصري، قالوا: إن حياته أنه بحيث يعلم ويقدر. بل الحياة صفة قائمة بالموصوف وهي شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية، وهي أيضاً مستلزمة لذلك، فكل حي له شعور وإرادة وعمل اختياري بقدرة، وكل ماله علم وإرادة وعمل اختياري فهي حي، و (الحياء) مشتق من (الحياة)، فإن القلب الحي يكون صاحبه حياً فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب، ولهذا قال النبي ﷺ «الحياء من الإيمان»[2] وقال «الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»[3]. فإن الحي يدفع ما يؤذيه، بخلاف الميت الذي لا حياة فيه [فإنه] يسمى وقحاً، والوقاحة الصلابة، وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة، فإذا كان وقحاً يابساً صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه، وامتناعه من القبح، كالأرض

---

(١) لأن من الهدى الى الصراط المستقيم: الصدق، والأمانة، والتعاون على الحق، والخير، والجهاد: والسعي لكسب الرزق الحلال، عمل كل ما أمر به الله من وسائل السعادة في الدنيا والآخرة، وكل ذلك من شعب الإيمان الإسلامي، والإخلال بشيء من ذلك إخلال: ببعض شعب الإيمان الاسلامي، ومجموع ذلك هو الهداية الى الصراط المستقيم.

(٢) البخاري: باب الأدب. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: مرّ النبي ﷺ على رجلٍ وهو يُعاتبُ في الحياءِ يقول: انك لتستحي، حتى كأنه يقول: قد أضرّبكَ، فقال رسول الله ﷺ: دعْهُ فإنّ الحياءَ من الإيمان».

وعن أبي هريرة رضي اللّهُ عنه عن النبي ﷺ قال: الإيمان بضْعٌ وستون شعْبة، والحياء شُعبة من الإيمان.

وصحيح مسلم: باب الإيمان. وسنن ابن ماجة: باب الإيمان.

(٣) سنن الترمذي: باب البر، ومسند الإمام أحمد بن حنبل: ٥، ٢٦٩.

اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام، بخلاف الأرض الخضرة. ولهذا كان (الحيّ) يظهر عليه التأثر بالقبح، وله إرادة تمنعه عن فعل القبيح، بخلاف الوقح والذي ليس بحيّ فإنه لا حياء معه، ولا إيمان يزجره عن ذلك،
الوقح والذي ليس بحيّ فإنه لا حياء معه، ولا إيمان يزجره عن ذلك،
فالقلب إذا كان حياً فمات الإنسان بفراق روحه بدنه كان موت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها. ولهذا قال تعالى: ﴿**ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، بل احياء**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء**﴾[2] مع أنهم موتى داخلون في قوله: ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾[3]، وفي قوله: ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾[4]، وقوله: ﴿**وهو الذي أحياكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم**﴾[5] فالموت المثبت غير الموت المنفي: المثبت هو فراق الروح البدن، والمنفي زوال الحياة بالجملة عن الروح والبدن، وهذا كما أن النوم أخو الموت، فيسمى وفاة ويسمى موتاً، وكانت الحياة موجودة فيهما، قال تعالى: ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى**﴾[6] وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من منامه يقول «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور»[7] وفي حديث آخر «الحمد لله الذي رد عليّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً»[8] وإذا أوى إلى فراشه يقول «اللهم أنت خلقت

---

(١) سورة البقرة: ١٥٤.
(٢) سورة آل عمران: ١٦٩.
(٣) سورة آل عمران: ١٨٥.
(٤) سورة الزمر: ٣٠.
(٥) سورة الحج: ٦٦.
(٦) سورة الزمر: ٤٢.
(٧) صحيح مسلم: باب الدعاء، وسنن ابن ماجه: باب الدعاء.
(٨) صحيح مسلم: باب الدعاء، والبخاري: كتاب الدعوات.

نفسي، وأنت توفاها، لك مماتها ومحياها، إن أمسكتها فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[1] ويقول «باسمك اللهم أموت وأحيا»[2].

---

(١) و(٢) صحيح مسلم: باب الدعاء، وصحيح البخاري: كتاب الدعوات.

فصل
ومن أمراض القلوب
(الحسد)

كما قال بعضهم في حده: إنه أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء. فلا يجوز أن يكون الفاضل حسوداً، لأن الفاضل يجري على ما هو الجميل. وقد قال طائفة من الناس: إنه تمنى زوال النعمة عن المحسود، وإن لم يصر للحاسد مثلها. بخلاف الغبطة فإنه تمنى مثلها، من غير حب زوالها عن المغبوط. والتحقيق أن الحسد هو البغض، والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود.

وهو نوعان: (أحدهما) كراهة للنعمة عليه مطلقاً، فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضاً في قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه بزوال الألم الذي كان في نفسه، ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة، وأشده[1] كالمريض، فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها، وقد يحصل نظير تلك النعمة ما أنعم به على النوع، ولهذا قال من قال: إنه تمنى زوال النعمة، فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها.

و (النوع الثاني) أن يكره فضل ذلك الشخص عليه، فيجب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد، وهو الذي سموه الغبطة، وقد سماه النبي

---

(١) في العبارة اضطراب، ولعلّ بعض ألفاظها تحرف على النساخ.

ﷺ حسداً في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود[1] وابن عمر[2] رضي الله عنهما قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها. ورجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق»[3] هذا لفظ ابن مسعود. ولفظ ابن عمر «رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار»[4]. ورواه البخاري[5] من حديث أبي هريرة[6] ولفظه «لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يتلوه الليل والنهار، فسمعه رجل فقال: يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا، فعملت فيه مثل ما يعمل هذا. ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا، فعملت فيه مثل ما يعمل هذا»[7]. فهذا الحسد الذي نهى

---

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل الهُذَلي (ت ٣٢) هـ كان سادس السابقين الى الإسلام، وهاجر مرتين، وحضر جميع الغزوات مع رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة، عبد الله ـ يعني ابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، ولاه عمر بن الخطاب (ض) قضاء الكوفة، وبيت المال فيها.

(٢) عبد الله بن عمر (ت ٧٣) هـ. ابن الخليفة عمر بن الخطاب رضي اللّهُ عنهما، وأحد العبادلة الأربعة المشهورين بالافتاء، وكان الزهري لا يعدل برأيه أحداً.

(٣) صحيح البخاري: كتاب العلم.

(٤) صحيح البخاري: فضائل القرآن: عن عبد الله بن عمر رضي اللّهُ عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: لا حسد إلا على اثنتين: رجل آتاهُ اللّهُ الكتاب وقام به آناء الليل، ورجل، أعطاهُ الله مالاً فهو يتصدّق به آناء الليل والنهار.

(٥) هو الإمام محمد بن اسماعيل بن ابراهيم، ويكنّى أبا عبد الله (١٩٤ ـ ٢٥٦) هـ ولد في قرية خرْتنك من قرى سمرقند، لا يُجاري في حفظه للحديث وضبطه، وقد صنّف كتابه الشهير: الجامع الصحيح الذي يُعتبر من أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم.

(٦) أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوْسي (٢١ ق.هـ ـ ٥٩ هـ) كنّاه رسول الله أبا هريرة من أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له، وروي عنه (٥٣٧٤) حديثاً، نقلها عنه أكثر من (٨٠٠) رجل بين صحابي وتابعي.

(٧) صحيح البخاري: فضائل القرآن: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ علّمهُ اللّهُ القرآن فهو يتلوهُ آناء الليل وآناء النهار، فسمعهُ جارٌ له فقال: ليتني أوتيتُ مثل ما أُوتي فلانٌ فعملْتُ مثلَ ما يعملُ، ورجلٌ آتاهُ اللّهُ مالاً فهو يهلكُهُ في الحقّ، فقال رجل: ليتني أُوتيتُ مثل ما أُوتي فلانٌ فعمْلتُ مثلَ ما يعملُ.

عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه.

فإن قيل: إذاً لم سمي حسداً وإنما أحب أن ينعم الله عليه؟ قيل: مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير، وكراهته أن يفضل عليه. ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يفضل عليه الغير كان حسداً لأنه كراهة تتبعها محبة، وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاتة إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شيء. ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني، وقد يسمى «المنافسة» فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب، كلاهما يطلب أن يأخذه، وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر، كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر.

والتنافس ليس مذموماً مطلقاً، بل هو محمود في الخير. قال تعالى: ﴿**إن الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم، ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾[1]، فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم، لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل. وهذا موافق لحديث النبي ﷺ، فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم، فهو يعمل به ويعلمه، ومن أوتي المال، فهو ينفقه. فأما من أوتي علماً ولم يعمل به ولم يعلمه، أو أوتي مالاً ولم ينفقه في طاعة الله، فهذا لا يحسد، ولا يتمنى مثل حاله، فإنه ليس في خير يرغب فيه، بل هو معرض للعذاب. ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل، وأدى الأمانات إلى أهلها، وحكم بين الناس بالكتاب والسنة، فهذا درجته عظيمة، لكن هذا في جهاد عظيم، كذلك المجاهد في سبيل الله. والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم، فلهذا لم يذكره، وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال، بخلاف المنفق والمعلم فإن هذين ليس لهما في العادة عدو من خارج، فإن قدر أنهما

(١) سورة المطففين: ٢٢ ـ ٢٦.

لهمـا عدو يجـاهدانـه فذلـك أفضل لـدرجتهما. وكـذلك لم يـذكر النبي ﷺ المصلي والصائم والحاج لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العـادة من نفع النـاس الذي يعظمون به الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والإنفاق.

والحسد في الأصل إنما يقع لمـا يحصل للغيـر من السؤدد والريـاسة، وإلا فالعامـل لا يحسد في العـادة، ولو كـان تنعمه بـالأكل والشـرب والنكاح أكثر من غيره، بخـلاف هذين النـوعين فإنهمـا يحسدان كثيـراً، ولهذا يـوجد بين أهل العلم الذين لهم أتبـاع من الحسد مـا لا يوجـد فيمن ليس كذلـك، وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفـاق مالـه، فهذا ينفـع الناس بقـوت القلوب، وهـذا ينفعهم بقوت الأبـدان، والناس كلهم محتـاجون إلى مـا يصلحهم من هذا وهذا، ولهـذا ضرب الله سبحـانه مثلين: مثـلاً بهذا فقـال: ﴿**ضرب الله مثـلاً عبداً مملوكـاً لا يقدر على شيء ومن رزقنـاه منا رزقـاً حسناً فهـو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوون؟ الحمد لله، بـل أكثرهم لا يعلمـون، وضرب الله مثـلاً رجلين: أحدهمـا أبكم لا يقدر على شيء، وهـو كلٌّ على مـولاه، أينمـا يوجهـه لا يأت بخيـر، هل يستـوي هو ومن يـأمر بـالعـدل وهـو على صـراط مستقيم**﴾[1]؟ والمثلان ضـربهما الله سبحـانه لنفسـه المقدسـة ولمـا يعبـد من دونـه، فـإن الأوثـان لا تقـدر لا على عمـل ينفـع، ولا على كـلام ينفـع، فإذا قـدر عبد مملوك لا يقـدر على شيء، وآخـر قـد رزقـه الله رزقـاً حسنـاً فهو ينفق منـه سـراً وجهـراً، هـل يستـوي هـذا المملوك العـاجـز عن الإحسـان وهذا القـادر على الإحسان المحسن إلى النـاس سراً وجهـراً؟ وهو سبحـانـه قـادر على الإحسـان إلى عبـاده، وهـو محسن إليهم دائمـاً، فكيف يشبه به العاجز المملوك الذي لا يقدر على شيء حتى يشـرك به معـه؟ وهذا مثل الذي أعطاه الله مالاً، فهو ينفق منه آناء الليل والنهار.

والمثـل الثاني: إذا قـدر شخصان، أحـدهما أبكم لا يعقـل ولا يتكلم ولا يقـدر على شيء، وهو مـع هذا كـل على مولاه، أينمـا يـوجهـه لا يـأت

---

(١) سورة النحل: ٧٥ ـ ٧٦.

بخير، فليس فيه من نفع قط، بل هو كل على من يتولى أمره. وآخر عالم عادل يأمر بالعدل ويعمل بالعدل فهو على صراط مستقيم. وهذا نظير الذي أعطاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها للناس. وقد ضرب ذلك مثلاً لنفسه، فإنه سبحانه عالم عادل قادر يأمر بالعدل، وهو قائم بالقسط على صراط مستقيم، كما قال تعالى: ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾[1] وقال هود: ﴿**إن ربي على صراط مستقيم**﴾[2]. ولهذا كان الناس يعظمون دار العباس: كان عبد الله يعلم الناس[3]، وأخوه يطعم الناس، فكانوا يعظمون على ذلك. ورأى معاوية[4] الناس يسألون ابن عمر عن المناسك وهو يفتيهم فقال: هذا والله الشرف. أو نحو ذلك.

هذا وعمر بن الخطاب[5] رضي الله عنه نافس أبا بكر[6] رضي الله عنه الإنفاق كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، قال فجئت بنصف مالي، قال فقال لي

---

(١) سورة آل عمران: ١٨.

(٢) سورة هود: ٥٦.

(٣) عبد الله بن عباس (٣ ق. هـ - ٦٨ هـ) القرشي الهاشمي، وهو ابن عمّ رسول الله ﷺ، حبرُ الأمّة، لازم النبي ودعا له عليه لسلام بقوله: اللهمّ فقهْهُ في الدين» فاستجاب اللَّهُ لنبيّه، لقبّه رسول الله ﷺ: ترجمان القرآن.

(٤) معاوية بن أبي سفيان (٢٠ ق.هـ - ٦٠ هـ) القرشي الأموي، مؤسس الدولة الأموية بالشّام، جعله رسول الله ﷺ من كتّابه.

(٥) عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي أبو حفص (٤٠ ق هـ - ٢٣) هـ ثاني الخلفاء الراشدين، الصحابي الجليل الحازم، وهو أحد العمرين اللذين كان النبي يدعو ربه أن يعزّ الإسلام بأحدهما. وفي أيامه فتحت الشام والعراق والقدس والمدائن ومصر، وفي الحديث الشريف: «اتقوا غضب عمر فإنّ الله يغضب لغضبه» لقبّه النبي بالفاروق.

(٦) أبو بكر الصديق هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر القرشي (٥١ ق هـ - ١٣ هـ) أوّل الخلفاء الراشدين، وأوّل من آمن بالإسلام من الرجال، وكانت العربُ تلقبه بعالم قريش، ولقّب بالصديق لتصديقه النبي ﷺ.

رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله. وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً»[١] فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة، لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل منه، وهو خال من المنافسة مطلقاً، لا ينظر إلى حال غيره. وكذلك موسى ﷺ في حديث المعراج: حصل له منافسة وغبطة للنبي ﷺ حتى «بكى لما تجاوزه النبي ﷺ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»[٢] أخرجاه في الصحيحين. وروى في بعض الألفاظ المروية غير الصحيح «مررنا على رجل وهو يقول ويرفع صوته: أكرمته وفضلته. قال: هذا أحمد. قال: مرحباً بالنبي الأمي الذي بلغ رسالة ربه، ونصح لأمته. قال: ثم اندفعنا فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا موسى بن عمران. ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه فيك. قلت ويرفع صوته على ربه؟ قال: إن الله عز وجل قد عرف صدقه وعمر رضي الله عنه كان مشبهاً بموسى، ونبينا حاله أفضل من حال موسى، فإنه لم يكن عنده شيء من ذلك.

وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح[٣] ونحوه، كانوا سالمين من جميع هذه الأمور، فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة وإن كان ذلك مباحاً، ولهذا استحق أبو عبيدة رضي الله عنه أن يكون «أمين هذه الأمة»[٤]، فإن المؤتمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء

---

(١) سنن الترمذي: المناقب، وسنن الدارمي: الزكاة.

(٢) صحيح البخاري: باب فضائل أصحاب النبي ـ باب المعراج.

(٣) أبو عبيدة بن الجراح: هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي (٤٠ ق هـ ـ ١٨ هـ) فاتح الشام، والصحابي، وأحد العشرة المبشرين بالجنّة، ولقبهُ: أمين الأمة.

(٤) صحيح البخاري: باب فضائل أصحاب النبي«عن أنس بن مالك رضي اللَّهُ عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: لكلِّ أمّةٍ أمينٌ وإنّ أميننا أيتُها الأمّةُ أبو عبيدة بن الجراح». وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة عن أنس أنّ أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً يعلّمنا السنّة قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: هذا أمينُ هذه الأمّة.

ممـا ائتمن عليه كـان أحق بالأمـانة ممن يخـاف مزاحمتـه، ولهذايؤتمن على النسـاء والصبيان الخصيـان، ويؤتمن على الولايـة الصغرى من يعـرف أنه لا يـزاحم على الكبرى، ويؤتمن على المـال من يعرف أنـه ليس له غـرض في أخـذ شيء منه، وإذا ائتمن من في نفسـه خيانـة شبه بـالـذئب المؤتمن على الغنم، فـلا يقدر أن يؤدي الأمـانة في ذلـك، لما في نفسـه من الـطلب لمـا ائتمن عليه.

وفي الحـديث الـذي رواه الإمـام أحمـد في مسنـده عن أنس رضي الله عنـه[1] قال «كنـا يومـاًجلوساً عنـد رسـول الله ﷺ، فقـال: يـطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة. قال فـطلع رجل من الأنصـار تنطف لحيتـه من وضوء، قـد علق نعليه في يـده الشمال، فسلم. فلمـا كـان الغـد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله. فلما كان اليوم الثالث قـال النبي ﷺ مقـالتـه، فـطلع ذلـك الـرجـل على مثـل حـالـه. فلمـا قـام النبي ﷺ اتبعـه عبـد الله بن عمـرو بن العـاص رضي الله عنـه فقـال: إني لاحيت أبي، فـأقسمت أن لا أدخل عليـه ثلاثـاً، فإن رأيت أن تؤويني إليـك حتى تمضي الثـلاث، فعلت. قال: نعم. قـال أنس رضي الله عنـه: فكـان عبد الله يحدث أنه بات عنده ثلاث ليال، فلم يره يقـوم من الليل شيئـاً، غير أنه إذا تعار وانقلب على فراشة ذكـر الله عز وجـل وكبر حتى يقـوم إلى صلاة الفجـر. فقال عبـد الله: غير أني لم أسمعـه يقول إلا خيـراً. فلما فـرغنا من الثـلاث ـ وكـدت أن أحقـر عمله ـ قلت: يـا عبـد الله، لم يكن بيني وبين والـدي غضب ولا هجرة، ولكن سمعت رسـول الله ﷺ يقول ثـلاث مرات: يـطلع عليكم رجل من أهـل الجنة، فـطلعت أنت الثلاث المـرات، فـأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فأقتـدي بذلـك، فلم أرك تعمل كثيـر عمل، فمـا الذي بلغ بـك ما قـال رسول الله ﷺ؟ قـال: ما هـو إلا مـا رأيت، غيـر

---

(١) أنس بن مالك بن النّضر بن ضمضم النجاري الخـزرجي الأنصاري (١٠ ق هـ ـ ٩٣ هـ) أبـو تمامة، صاحبُ رسول الله ﷺ وخـادمه الأمين، مشهـور له بـالتقوى والـورع، قال أبـو هريـرة عنه: ما رأيتُ أحداً أشبه صلاةً برسول الله ﷺ منه».

أنني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً، ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق»[1]. فقول عبد الله بن عمرو له «هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق» يشير إلى خلوه وسلامته من جميع أنواع الحسد، وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال: ﴿**ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾[2] أي مما أوتي إخوانهم المهاجرون قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة أي حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون. ثم قال بعضهم: من مال الفيء. وقيل: من الفضل والتقدم. فهم لا يجدون حاجة مما أوتوا من المال ولا من الجاه، والحسد يقع على هذا. وكان بين الأوس والخزرج منافسة على الدين، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك، فهو منافسة فيما يقربهم إلى الله، كما قال: ﴿**وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾[3].

وأما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى في حق اليهود: ﴿**ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق**﴾[4]: يودون أي يتمنون ارتدادكم حسداً، فجعل الحسد هو الموجب لذلك الود، من بعد ما تبين لهم الحق، لأنهم لما رأوا أنكم قد حصل لكم من النعمة ما حصل - بل ما لم يحصل لهم مثله - حسدوكم. وكذلك في الآية الأخرى: ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآتيناهم ملكاً عظيماً، فمنهم من آمن به، ومنهم من صدّ عنه، وكفى**

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣، ٦٦، ٢٥٦، ٢٨٠.
(٢) سورة الحشر: ٩.
(٣) سورة المطففين: ٢٦.
(٤) سورة البقرة: ١٠٩.

بجهنم سعيرا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد﴾**[2] وقد ذكر طائفة من المفسرين أنها نزلت بسبب حسد اليهود للنبي ﷺ حتى سحروه، سحره لبيد بن الأعصم اليهودي[3]. فالحاسد المبغض للنعمة على من أنعم الله عليه بها ظالم معتد، والكاره لتفضيله المحب لمماثلته منهي عن ذلك إلا فيما يقربه إلى الله، فإذا أحب أن يعطي مثل ما أعطى مما يقربه إلى الله فهذا لا بأس به، وإعراض قلبه عن هذا بحيث لا ينظر إلى حال الغير أفضل. ثم هذا الحسد إن عمل بموجبه صاحبه كان ظالماً معتدياً مستحقاً للعقوبة إلا أن يتوب؛ وكان المحسود مظلوماً مأموراً بالصبر والتقوى، فيصبر على أذى الحاسد، ويعفو ويصفح عنه، كما قال تعالى: ﴿**ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم، من بعد ما تبين لهم الحق، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾**[4]. وقد ابتلي يوسف بحسد إخوة له حيث قالوا: ﴿**ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا، ونحن عصبة، إن أبانا لفي ضلال مبين﴾**[5] فحسدوهما على تفضيل الأب لهما، ولهذا قال يعقوب ليوسف: ﴿**لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾**[6] ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله، وإلقائه في الجب، وبيعه رقيقاً لمن ذهب به إلى بلاد الكفر فصار مملوكاً لقوم كفار. ثم إن يوسف ابتلي - بعد أن ظلم - بمن يدعوه إلى الفاحشة ويراوده عليها ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك، فاستعصم، واختار السجن على الفاحشة، وآثر عذاب الدنيا على سخط الله، فكان مظلوماً من جهة من أحبه، لهواه وغرضه الفاسد. فهذه المحبة أحبته لهوى محبوبها، شفاؤها وشقاؤها إن

---

(١) سورة النساء: ٥٤.

(٢) سورة الفلق: ١ - ٥.

(٣) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق.

(٤) سورة البقرة: ١٠٩.

(٥) سورة يوسف: ٨.

(٦) سورة يوسف: ٥.

وافقها. وأولئك المبغضون أبغضوه بغضة أوجبت أن يصير ملقى في الجب، ثم أسيراً مملوكاً بغير اختياره، فأولئك أخرجوه من انطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره، وهذه ألجأته إلى أن اختار أن يكون محبوساً مسجوناً باختياره، فكانت هذه أعظم في محنته، وكان صبره هنا صبراً اختيارياً اقترن به التقوى، بخلاف صبره على ظلمهم فإن ذلك كان من باب المصائب التي من لم يصبر عليها صبر الكرام سلا سلو البهائم، والصبر الثاني أفضل الصبرين، ولهذا قال: **﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**[1].

وهكذا إذا أوذي المؤمن على إيمانه وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان - وإن لم يفعل أوذي وعوقب - فاختار الأذى والعقوبة على فراق دينه، إما الحبس وإما الخروج من بلده، كما جرى للمهاجرين حين اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين، وكانوا يعذبون ويؤذون، وقد أوذي النبي ﷺ بأنواع من الأذى. فكان يصبر عليها صبراً اختيارياً، فإنه إنما يؤذي لئلا يفعل ما يفعله باختياره، وكان هذا أعظم من صبر يوسف، لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة، وإنما عوقب - إذ لم يفعل - بالحبس، والنبي ﷺ وأصحابه طلب منهم الكفر، وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون ما عوقب به الحبس، فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة، ثم لما مات أبو طالب اشتدوا عليه، فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج، ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك، ولم يكن أحد يهاجر إلا سراً، إلا عمر بن الخطاب ونحوه، فكانوا قد ألجأوهم إلى الخروج من ديارهم[2]، ومع هذا منعوا من منعوه منهم عن ذلك وحبسوه. فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله، لم يكن من المصائب السماوية

---

(١) سورة يوسف: ٩٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج ١ ص ١٧٩، ١٨٠، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٩١، ٣٤٢، ٤٧٢، ٤٧٤.

التي تجـري بـدون اختيـار العبـد من جنس حبس يـوسف، لا من جنس التفـريق بينه وبين أبيـه، وهذا أشـرف النوعين، وأهلهـا أعظم بـدرجة، وإن كـان صـاحب المصـائب يثـاب على صبـره ورضـاه وتكفـر عنـه الـذنـوب بمصـائبـه، فـإن هـذا أصيب وأوذي بـاختيـاره طـاعـة لله يثـاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صـالح. قـال تعالى: **﴿ذلـك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئـون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينـالون من عـدو نيلاً إلا كتب لهم بـه عمل صـالـح، إن الله لا يضيـع أجـر المحسنين﴾**(١) بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيـار العبد ـ كـالمرض، وموت العزيز عليه، وأخـذ اللصوص مـاله ـ فـإن تلك إنما يثـاب على الصبر عليها، لا على نفس ما يحدث من المصيبة ومـا يتولـد عنها. والـذين يؤذون على الإيمـان وطـاعـة الله ورسـولـه، ويحـدث لهم بسبب ذلـك حـرج، أو مـرض، أو حبس أو فـراق وطن وذهـاب مـال وأهـل، أو ضـرب أو شتم أو نقص ريـاسـة ومـال، وهم في ذلـك على طـريقـة الأنبيـاء، وأتبـاعهم كالمهاجرين الأولين، فهؤلاء يثابون على ما يؤذون بـه، ويكتب لهم به عمـل صـالح، كمـا يثاب المجـاهـد على ما يصيبه من الجـوع والعـطش والتعب، وعلى غيـظه الكفـار، وإن كـانت هـذه الآثـار ليست عمـلاً فعله ويقـوم بـه، لكنها متسببة عن فعله الاختيـاري، وهي التي يقال لهـا متولـدة، وقد اختلف النـاس: هـل يقـال إنهـا فعـل لفـاعـل السبب، أو لله، أو لا فـاعـل لهـا؟ والصحيح أنها مشتركة بين فاعل السبب وسائر الأسبـاب، ولهذا كتب لـه بها عمل صالح.

والمقصود أن «الحسد» مـرض من أمراض النفس، وهـو مرض غـالب فـلا يخلص منـه إلا القليـل من النـاس، ولهـذا يقـال: مـا خـلا جسـد من حسـد، لكن اللئيم يبديـه، والكريم يخفيـه. وقـد قيـل للحسن البصـري: أيحسـد المؤمن؟ فقال: مـا أنساك أخـوة يوسف لا أبـا لـك؟ ولكن عمِّـه في صدرك فإنه لا يضرك مـا لم تعد بـه يداً ولسـاناً. فمن وجـد في نفسه حسـداً

---

(١) سورة التوبة: ١٢٠.

لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر، فيكره ذلك من نفسه. وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود، فلا يعينون من ظلمه، ولكنهم أيضاً لا يقومون بما يجب من حقه، بل إذا ذمه أحد لم يوافقوه على ذمه، ولا يذكرون محامده، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا. وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه مفرطون في ذلك لا معتدون عليه، وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون أيضاً في مواضع، ولا ينصرون على من ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود، وأما من اعتدى بقول أو فعل فذلك يعاقب، ومن اتقى الله وصبر فلم يدخل في الظالمين نفعه الله بتقواه، كما جرى لزينب بنت جحش رضي الله عنها[1]، فإنها كانت هي التي تسامي عائشة من أزواج النبي ﷺ، وحسد النساء بعضهن لبعض كثير غالب لا سيّما المتزوجات بزوج واحد، فإن المرأة تغار على زوجها لحظها منه، فإنه بسبب المشاركة يفوت بعض حظها. وهكذا الحسد يقع كثيراً بين المتشاركين في رئاسة أو مال إذا أخذ بعضهم قسطاً من ذلك وفات الآخر. ويكون بين النظراء لكراهة أحدهم أن يفضل الآخر عليه، كحسد إخوة يوسف، وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه، فإنه حسده لكون أن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان هذا، فحسده على ما فضله الله من الإيمان والتقوى كحسد اليهود للمسلمين، وقتله على ذلك. ولهذا قيل: أول ذنب عصى الله به ثلاثة، الحرص والكبر والحسد. فالحرص من آدم، والكبر من إبليس، والحسد من قابيل حيث قتل هابيل. وفي الحديث: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد، والظن، والطيرة. وسأحدثكم بما يخرج من ذلك: إذا حسدت فلا تبغض، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض» رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة. وفي السنن عن النبي ﷺ «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد،

---

(١) زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية من أسد خزيمة (٣٣ ق هـ - ٢٠) هـ أم المؤمنين، وإحدى شهيرات النساء في صدر الإسلام، كانت زوجة زيد بن حارثة، وطلّقت زيد فتزوّج بها النبي ﷺ، ونزلت بسببها آيةُ الحجاب.

والبغضاء ـ وهي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[١] فسماه «داء» كما سمي البخل داء في قوله «وأي داء أدوأ من البخل»؟ فعلم أن هذا «مرض». وقد جاء في حديث آخر «أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء»[٢] فعطف «الأدواء» على الأخلاق والأهواء، فإن الخلق ما صار «عادة للنفس وسجية» قال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[٣] قال ابن عباس وابن عيينة[٤] وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم: على دين عظيم. وفي لفظ عن ابن عباس: على دين الإسلام. وكذلك قالت عائشة رضي الله عنها[٥]: كان خلقه القرآن. وكذلك قال الحسن البصري[٦]: أدب القرآن هو الخلق العظيم.

وأما «الهوى» فقد يكون عارضاً، والداء هو المرض، وهو تألم القلب والفساد فيه. وقرن في الحديث الأول الحسد بالبغضاء لأن الحاسد يكره أو لا فضل الله على ذلك الغير، ثم ينتقل إلى بغضه، فإن بغض اللازم يقتضي بغض الملزوم، فإن نعمة الله إذا كانت لازمة ـ وهو يحب زوالها وهي لا تزول إلا بزواله ـ أبغضه وحب عدمه. والحسد يوجب البغي، كما أخبر الله تعالى عمن قبلنا أنهم اختلفوا ﴿من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾[٧]، فلم يكن اختلافهم لعدم العلم، بل علموا الحق، ولكن بغى

(١) سنن الترمذي: القيامة، ومسند الإمام أحمد بن حنبل: ١، ١٦٥، ١٦٧.

(٢) سنن الترمذي: الدعوات «أعوذُ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء».

(٣) سورة القلم: ٤.

(٤) سفيان بن عُيينَة (١٠٧ ـ ١٩٨) الكوفي أبو محمد: محدّث الحرم المكيّ، من الموالي. كان حافظاً ثقةً، واسع العلم، قال الشافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علمُ الحجاز».

(٥) عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما (٩ ق هـ ـ ٥٨ هـ) أفقهُ نساء المؤمنين وأعلمهنّ بالدين والأدب، وأحبُّ نساء النبي ﷺ: لله قال الزّهري: «لو جمع علمُ عائشة إلى علم جميع أزواج النبي وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل.

(٦) الحسن بن يسار البصري (٢١ ـ ١١٠) هـ أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمّة في زمنه، وهو أحد العلماء النسّاك، وكان غاية في الفصاحة.

(٧) سورة آل عمران: ١٩.

بعضهم على بعض، كما يبغى الحاسد على المحسود. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال: يلتقيان، فيصد هذا ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»(١)، وقد قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته من رواية أنس أيضاً: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢). وقد قال تعالى: ﴿**وإن منكم لمن ليبطئن، فإن أصابتكم مصيبة قال: قد أنعم الله على إذا لم أكن معهم شهيداً، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ـ كأن لم يكن بينكم وبينه مودة ـ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً**﴾(٣) فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم، بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم، وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها، بل أحبوا أن يكون لهم منها حظ، فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم، أو شر دنيوي ينصرف عنهم؛ إذ كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة، ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم وأحبوا ما وصل إليهم من فضله، وتألموا بما يصيبهم من المصيبة، ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوؤه ما يسوء المؤمنين فليس منهم، ففي الصحيحين عن عامر (الشعبي) قال: «سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»(٤)، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً. وشبك بين أصابعه»(٥).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب.

(٢) صحيح مسلم: باب الإيمان.

(٣) سورة النساء: ٧٢.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأدب.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الأدب.

و «الشح مرض»، و «البخل مرض» والحسد شر من البخل كما في الحديث الذي رواه أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، والصدقة تطفىء الخطيئة كما تطفىء الماء النار»[1] وذلك أن البخيل يمنع نفسه، والحسود يكره نعمة الله على عباده. وقد يكون في الرجل إعطاء لمن يعينه على أغراضه، وحسد لنظرائه. وقد يكون فيه بخل بلا حسد لغيره. والشح أصل ذلك قال تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[2] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال «إياكم والشح، فإنه هلك من كان قبلكم: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[3]. وكان عبد الرحمن ابن عوف[4] يكثر من الدعاء في طوافه يقول «اللهم قني شح نفسي» فقال له رجل: ما أكثر ما تدعو بهذا؟ فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الشح والظلم والقطيعة. والحسد يوجب الظلم.

فصل

فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها، بل وحبها لما يضرها، ولهذا يقرن الحسد بالحقد والغضب. وأما «مرض الشهوة والعشق» فهو حب النفس لما يضرها، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها. والعشق مرض نفساني، وإذا قوي أثر في البدن فصار مرضاً في الجسم: إما من أمراض الدماغ كالماليخوليا، ولذلك قيل فيه هو مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا. وإما من أمراض البدن كالضعف والنحول ونحو ذلك،

---

(١) مسند أبي داود: الأدب، وسنن ابن ماجه: الزهد.

(٢) سورتا الحشر والتغابن: ٩ و١٦.

(٣) صحيح مسلم: البرّ، ومسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢، ١٦٠، ١٩١، ١٩٥، ٤٣٢، ٣، ٢٢٣.

(٤) عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث القرشي (٤٤ ق هـ - ٣٢) هـ. من أكابر الصحابة، وهو أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وأحدُ الستّة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة فيهم، سمّاه رسول الله ﷺ عبد الرحمن.

والمقصود هنا مرض القلب، فإنه أصل محبة النفس لما يضرها، كمريض البدن الذي يشتهي ما يضره، وإذا لم يطعم ذلك تألم، وإن أطعم قوي به المرض وزاد. كذلك العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعاً، بل ويضره التفكر فيه والتخيل له وهو يشتهي ذلك، فإن منع من مشتهاه تألم وتعذب، وإن أعطى مشتهاه قوي مرضه، وكان سبباً لزيادة الألم. وفي الحديث «إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب»[1]. وفي مناجاة موسى المأثورة عن وهب التي رواها الإمام أجمد في كتاب الزهد «يقول الله تعالى: إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها، كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراتع الهلكة. وإني لأجنيهم سكونها وعيشها، كما يجنب الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة. وما ذلك لهو انهم عليّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفراً، لم تكلمه الدنيا، ولم يطفئه الهوى»[2]. وإنما شفاء المريض بزوال مرضه، بل بزوال ذلك الحب المذموم من قلبه.

والناس في العشق على قولين: قيل إنه من باب الإرادات، وهذا هو المشهور. وقيل من باب التصورات، وإنه فساد في التخييل، حيث يتصور المعشوق على (غير) ما هو به. قال هؤلاء: ولهذا لا يوصف الله بالعشق ولا أنه يعشق لأنه منزه عن ذلك، ولا يحمد من يتخيل فيه خيالاً فاسداً.

وأما الأولون فمنهم من قال: يوصف بالعشق، فإنه المحبة التامة، والله يحب ويحب. وروى في أثر عنّ عبد الواحد بن زيد أنه قال: لا يزال عبدي يتقرب إلي[3]، ويعشقني وأعشقه. وهذا قول بعض الصوفية. والجمهور لا يطلقون هذا اللفظ في حق الله، لأن العشق هو المحبة المفرطة، الزائدة على الحد الذي ينبغي، والله تعالى محبته لا نهاية لها

(١) مسند ابن حنبل: ٥: ٤٢٧، ٤٢٨.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد.

(٣) صحيح مسلم: باب الذكر. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إذا تقرّب عبدي مني شبراً تقرّبت منه ذراعاً».

فليست تنتهي إلى حد لا تنبغي مجاوزته. قال هؤلاء: والعشق مذموم مطلقاً، لا يمدح في محبة الخالق ولا المخلوق، لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحدود. وأيضاً فإن لفظ «العشق» إنما يستعمل في العرف في محبة الإنسان لامرأة أو صبي، لا يستعمل في محبة كمحبة الأهل والمال والجاه، ومحبة الأنبياء والصالحين. وهو مقرون كثيراً بالفعل المحرم: إما بمحبة امرأة أجنبية أو صبي يقترن به النظر المحرم واللمس المحرم وغير ذلك من الأفعال المحرمة. وأما محبة الرجل لامرأته أو سريته [محبة] تخرجه عن العدل بحيث يفعل لأجلها ما لا يحل ويترك ما يجب - كما هو الواقع كثيراً - حتى يظلم ابنه من امرأته العتيقة لمحبته الجديدة، وحتى يفعل من مطالبها المذمومة ما يضره في دينه ودنياه، مثل أن يخصها بميراث لا تستحقه؛ أو يعطي أهلها من الولاية والمال ما يتعدى به حدود الله، أو يسرف في الإنفاق عليها، أو يمكنها من أمور محرمة تضره في دينه ودنياه - وهذا في عشق من يباح له وطؤها، فكيف عشق الأجنبية والذكران من العالمين - ففيه من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، وهو من الأمراض التي تفسد دين صاحبها وعرضه، ثم قد تفسد عقله ثم جسمه، قال تعالى: ﴿**فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض**﴾[1]، ومن في قلبه مرض الشهوة وإرادة الصورة متى خضع المطلوب طمع المريض، والطمع يقوي الإرادة والطلب، ويقوي المرض بذلك، بخلاف ما إذا كان آيساً من المطلوب، فإن اليأس يزيل الطمع فتضعف الإرادة فيضعف الحب، فإن الإنسان لا يريد أن يطلب ما هو آيس منه، فلا يكون مع الإرادة عمل أصلاً، بل يكون حديث نفس، إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر ونحو ذلك. فأما إذا ابتلى بالعشق وعف وصبر فإنه يثاب على تقواه لله؛ وقد روى في الحديث «أن من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات كان شهيداً» وهو معروف من رواية يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه نظر، ولا يحتج بهذا. لكن من المعلوم بأدلة الشرع أنه إذا

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٢.

عف عن المحرمات نظراً وقولاً وعملاً وكتم ذلك فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلام محرم ـ إما شكوى إلى المخلوق، وإما إظهار فاحشة، وإما نوع طلب للمعشوق ـ وصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى ما في قلبه من ألم العشق كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة، فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر، و﴿**من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾[1]. وهكذا «مرض الحسد» وغيره من أمراض النفوس، وإذا كانت النفس تطلب ما يبغضه الله، فينهاها خشية من الله، كان ممن دخل في قوله: ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى**﴾[2].

فالنفس إذا أحبت شيئاً سعت في حصوله بما يمكن، حتى تسعى في أمور كثيرة تكون كلها مقامات لتلك الغاية، فمن أحب محبة مذمومة أو أبغض بغضاً مذموماً وفعل ذلك كان آثماً، مثل أن يبغض شخصاً لحسده له فيؤذي من له به تعلق، إما بمنع حقوقه، أو بعدوان عليهم، أو لمحبة له لهواه معه فيفعل لأجله ما هو محرم، أو ما هو مأمور به لله فيفعله لأجل هواه لا لله. وهذه أمراض كثيرة في النفوس، والإنسان قد يبغض شيئاً فيبغض لأجله أموراً كثيرة بمجرد الوهم والخيال، وكذلك يحبّ شيئاً فيحب لأجله أموراً كثيرة لأجل الوهم والخيال. كما قال شاعرهم:

أحب لحبها السُّودان حتى ... أحب لحبها سود الكلاب

فقد أحب سوداء، فأحب جنس السواد حتى في الكلاب. وهذا كله مرض في القلب في تصوره وإرادته. فنسأل الله أن يعافي قلوبنا من كل داء. ونعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء.

والقلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى، وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده كما قال النبي ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها

(١) سورة يوسف: ٩٠.

(٢) سورة النازعات: ٣٩.

من جدعاء»[1]؟ ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾[2] أخرجه البخاري ومسلم. فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده، فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً بالله محباً له وحده، لكن تفسد فطرته من مرضه ـ كأبويه يهودانه أو ينصرانه ـ وهذه كلها تغير فطرته التي فطره الله عليها، وإن كانت بقضاء الله وقدره كما يغير البدن بالجدع، ثم قد يعود إلى الفطرة إذا يسر الله تعالى لها من يسعى في إعادتها إلى الفطرة.

والرسل ـ ﷺ ـ بُعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها. وإذا كان القلب محباً لله وحده مخلصاً له الدين لم يبتل بحب غيره، فضلاً أن يبتلي بالعشق، وحيث ابتلى بالعشق فلنقص محبته لله وحده. ولهذا لما كان يوسف محباً لله مخلصاً له الدين لم يبتل بذلك، بل قال تعالى: ﴿**كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين**﴾[3]. وأما امرأة العزيز فكانت مشركة هي وقومها، فلذلك ابتليت بالعشق، وما يبتلي بالعشق أحد ألا لنقص توحيده وإيمانه، وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفانه عن العشق: أحدهما إنابته إلى الله ومحبته له، فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء، فلا تبقى مع محبة الله محبة مخلوق تزاحمه. والثاني خوفه من الله؛ فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه. وكل من أحب شيئاً ـ بعشق، أو بغير عشق ـ فإنه يصرف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه إذا كان يزاحمه، وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب، فإذا كان الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأخوف عنده من كل شيء، لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة الا عند غفلة، أو عند ضعف هذا الحب والخوف، بترك بعض الواجبات وفعل بعض

---

(١) صحيح البخاري: باب الجنائز.

(٢) سورة الروم: ٣٠.

(٣) سورة يوسف: ٢٤.

المحرمات، فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفاً منه، وترك المعصية حباً له وخوفاً منه، قوى حبه له وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره، ومخافة غيره.

وهكذا أمراض الأبدان: فإن الصحة تحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد. فصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل، وهو ما يورث القلب إيماناً من العلم النافع والعلم الصالح، فتلك أغذية له، كما في حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً «إن كل آدب يحب أن تؤتي مأدبته، وإن مأدبة الله هي القرآن»[١] والآدب المضيف؛ فهو ضيافة الله لعباده[٢].

آخر الليل، وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده، وفي أدبار الصلوات، ويضم إلى ذلك الاستغفار، فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعاً حسناً إلى أجل مسمى. وليتخذ ورداً من الأذكار في النهار ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه. وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة، فإنها عمود الدين. وليكن هجيراه «لا حول ولا قوة إلا لله» فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال. ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي، وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا، ولم ينل أحد شيئاً من ختم الخير - نبي فمن دونه - إلا بالصبر.

والحمد لله رب العالمين، وله الحمد والمنة على الإسلام والسنة، حمداً يكافىء نعمه الظاهرة والباطنة، وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله.

---

(١) سنن الدارمي: باب فضائل القرآن. عن ابن مسعود قال: ليس من مؤدب إلا وهو يحب أن يؤتي أدبه، وأنّ أدب الله القرآن». وعن ابن الأحوص قال: كان عبد الله يقول: إنّ هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل منه فهو آمن».

(٢) بياض بالأصل.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

ومما كتبه شيخ الإسلام رحمه الله في (أمراض القلوب وشفائها):

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم.

قد ذكرنا ـ في غير موضع ـ أن صلاح حال الإنسان في (العدل)، كما أن فساده في (الظلم)، وأن الله سبحانه عدله وسواه لما خلقه، وصحة جسمه وعافيته من اعتدال أخلاطه وأعضائه، ومرض ذلك الانحراف والميل، وكذلك استقامة القلب واعتداله، واقتصاده وصحته وعافيته وصلاحه متلازمة.

وقد ذكر الله (مرض القلوب وشفاءها) في مواضع من كتابه، وجاء ذلك في سنة رسوله ﷺ، كقوله تعالى عن المنافقين: ﴿**في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضاً**﴾[1]، وقال: ﴿**فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم**﴾[3]، وقال: ﴿**قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور**﴾[4]، وقال تعالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة**

---

(١) سورة البقرة: ١٠.

(٢) سورة المائدة: ٥٢.

(٣) سورة التوبة: ١٤.

(٤) سورة يونس: ٥٧.

للمؤمنين﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾[2] وقال تعالى: ﴿ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض﴾[3] وقال: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم﴾[4] وقال: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾[5].

وقال النبي ﷺ: «هلا سألوا إذ لم يعلموا، فإن شفاء العي السؤال»[6]، وقال الرشيد[7]: «الآن شفيتني يا مالك»[8] وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود: «إن أحداً لا يزال بخير ما اتقى الله، وإذا شك في تفسير شيء سأل رجلاً فشفاه، وأوشك أن لا يجده والذي لا إله إلا هو»[9].

وما ذكر الله من مرض القلوب وشفائها بمنزلة ما ذكر من موتها وحياتها وسمعها وبصرها وعقلها وصممها وبكمها وعماها، لكن المقصود مرض القلب فنقول:

المرض نوعان: فساد الحس، وفساد الحركة الطبيعية وما يتصل بها من الإرادية. وكل منهما يحصل بفقده ألم وعذاب. فكما أنه مع صحة

---

(١) سورة الاسراء: ٨٢.
(٢) سورة فصّلت: ٤٤.
(٣) سورة الأحزاب: ٣٢.
(٤) سورة الأحزاب: ٦٠.
(٥) سورة الأحزاب: ١٢.
(٦) راجع صفحة ٤.
(٧) هارون الرشيد بن محمد المهدي، أبو جعفر (١٤٩ ـ ١٩٣) هـ، خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم، كان عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، يحجُّ سنة ويغزو سنة.
(٨) مالك بن أنس (٩٣ ـ ١٧٩) هـ الأصبحي، يكنى أبا عبد الله. إمام أهل المدينة، وفيه يقول الإمام الشافعي: مالك حجّة الله على خلقه بعد التابعين، ألّف الموطأ.
(٩) صحيح البخاري: كتاب الجهاد.

الحس والحركة الإرادية والطبيعية تحصل اللذة والنعمة، فكذلك بفسادها يحصل الألم والعذاب. ولهذا كانت النعمة من النعيم، وهو ما ينعم الله به على عباده مما يكون فيه لذة ونعيم، وقال: ﴿لتسألن يومئذ عن النعيم﴾[1] أي عن شكره.

فسبب اللذة إحساس الملائم، وسبب الألم إحساس المنافي، ليس اللذة والألم نفس الإحساس والإدراك، وإنما هو نتيجته وثمرته، ومقصوده وغايته. فالمرض فيه ألم لا بد منه، وإن كان قد يسكن أحياناً لمعارض راجح، فالمقتضى له قائم يهيج بأدنى سبب، فلا بد في المرض من وجود سبب الألم، وإنما يزول الألم بوجود المعارض والراجح.

ولذة القلب وألمه أعظم من لذة الجسم وألمه، أعني ألمه ولذته النفسانيين، وإن كان قد يحصل فيه من الألم من جنس ما يحصل في سائر البدن بسبب مرض الجسم فذلك شيء آخر. فلذلك كان مرض القلب وشفاؤه أعظم من مرض الجسم وشفائه، فتارة يكون من جملة الشبهات كما قال: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾[2]، وكما صنف الخرائطي «كتاب اعتلال القلوب بالأهواء»[3] ففي قلوب المنافقين المرض من هذا الوجه: من جهة فساد الاعتقادات، وفساد الإرادات.

والمظلوم في قلبه مرض، وهو الألم الحاصل بسبب ظلم الغير له، فإذا استوفى حقه اشتفى قلبه، كما قال تعالى: ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم﴾[4] فإن [ذهاب] غيظ القلب إنما هو لدفع الأذى والألم عنه، فإذا اندفع عنه الأذى واستوفى حقه زال غيظه، فكما أن الإنسان إذا صار لا يسمع بأذنه ولا يبصر بعينه كان ذلك مرضاً مؤلماً له

---

(١) سورة التكاثر: ٨.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٢.

(٣) راجع ترجمته في الصفحة الرابعة.

(٤) سورة التوبة: ١٤.

[بما] يفوته من المصالح ويحصل له من المضار، فكذلك إذا لم يسمع ولم يبصر ولم يعلم بقلبه الحق من الباطل ولم يميز بين الخير والشر والغي والرشاد كان ذلك من أعظم أمراض قلبه وألمه: وكما أنه إذا اشتهى ما يضره مثل الطعام الكثير في الشهوة الكلية، ومثل أكل الطين ونحوه[1] كان ذلك مرضاً. فإنه يتألم حتى يزول ألمه بهذا الأكل الذي يوجد ألماً أكثر من الأول، فهو يتألم إن أكل، ويتألم إن لم يأكل.

فكذلك إذا بلي بحب من لا ينفعه بعشق ونحوه ـ سواء كان لصورة أو لرياسة أو لمال ونحو ذلك ـ فإن لم يحصل على محبوبه ومطلوبه فهو متألم ومريض سقيم، وإن حصل محبوبه فهو أشد مرضاً وألماً وسقماً، كما أن المريض إذا كان يبغض ما يحتاج إليه من الطعام والشراب كان ذلك الألم حاصلاً، وكان دوامه على ذلك يوجب من الألم أكثر من ذلك حتى يقتله، أو يزول ما يوجب بغضه لما ينفعه ويحتاج إليه، فهو متألم في الحال، وتألمه فيما بعد ـ إن لم يعافه الله ـ أعظم وأكبر. فبغض الحاسد لنعمة الله على المحسود كبغض المريض لأكل الأصحاء لأطعمتهم وأشربتهم حتى لا يقدر أن يراهم يأكلون، ونفرته عن أن يقوم بحقه كنفرة المريض عما يصلح له من طعام وشراب.

فالحب والبغض الخارج عن الاعتدال والصحة في النفس، كالشهوة والنفرة الخارجة عن الاعتدال والصحة في الجسم، وعمى القلب وبكمه عن أن يبصر الحقائق، ويميز بين ما ينفعه ويسره، كعمى الجسم وخرسه عن أن يبصر الأمور المرئية ويتكلم بها يميّز بين ما ينفعه ويضره. وكما أن الضرير إذا أبصر وجد من الراحة والعافية والسرور أمراً عظيماً، فبصر القلب ورؤيته الحقائق بينه وبين بصر الرأس من التفاوت ما لا يحصيه إلا الله. وإنَّما الغرض هنا تشبيه أحد المرضين بالآخر، فطب الأديان يحتذي

---

(١) بعض النساء في حالة الوحم عند بداية الحمل يشتهين أكل شيء من الطين الجاف يتلذذن به.

حذو طب الأبدان، وقد كتب سلمان[1] إلى أبي الدرداء[2] «أما بعد فقد بلغني أنك قعدت طبيباً، فإياك أن تقتل، والله أنزل كتابه شفاء لما في الصدور» وقال تعالى: ﴿ونَنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾[3] ذلك أن الشفاء إنما يحصل لمن يتعمد الدواء، وهم المؤمنون وضعوا دواء القرآن على داء قلوبهم.

فمرض الجسم يكون بخروج الشهوة والنفرة الطبيعية عن الاعتدال: إما بشهوة ما لا يحصل، أو يفقد الشهوة النافعة، وينفر به عما يصلح، ويفقد النفرة عما يضر. ويكون بضعف قوة الإدراك والحركة. كذلك مرض القلب يكون بالحب والبغض الخارجين عن الاعتدال، وهي الأهواء التي قال الله فيها: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[4]، وقال: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾[5]: كما يكون الجسد خارجاً عن الاعتدال إذا فعل ما يشتهيه الجسم بلا قول الطبيب، ويكون لضعف إدراك القلب وقوته حتى لا يستطيع أن يعلم ويريد ما ينفعه ويصلح له.

وكما أن المرضى الجهال قد يتناولون ما يشتهون، فلا يحتمون، ولا يصبرون على الأدوية الكريهة، لما في ذلك من تعجيل نوع من الراحة واللذة، ولكن ذلك يعقبهم من الآلام ما يعظم قدره أو يعجل الهلاك، فكذلك بنو آدم هم جهال ظلموا أنفسهم: يستعجل أحدهم ما ترغبه لذته، ويترك ما تكرهه نفسه مما هو لا يصلح له، فيعقبهم ذلك من الألم والعقوبات ـ إما في الدنيا، وإما في الآخرة ـ ما فيه عظم العذاب والهلاك الأعظم.

---

(١) سلمان الفارسي (ت ٣٦) هـ صحابي، وهو الذي دلّ المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب، وقال رسول الله ﷺ: «سلمان منّا أهل البيت».

(٢) أبو الدّرداء عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي (ت ٣٢) هـ. حفظ القرآن عن رسول الله ﷺ وأبلى في غزوة أحد فقال النبي ﷺ: «نعمَ الفارس عويمر»، وقد آخى النبي بينه وبين سلمان الفارسي، ولاه معاوية قضاء دمشق.

(٣) سورة الاسراء: ٨٢.

(٤) سورة القصص: ٥٠.

(٥) سورة الروم: ٢٩.

و «التقوى» هي «الاجتماء» عما يضره بفعل ما ينفعه، فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع، وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضاً استعمال الضار فلا يكون صاحبه من المتقين. وأما ترك استعمال الضار والنافع فهذا لا يكون، فإن العبد إذا عجز عن تناول الغذاء كان مغتذياً بما معه من المواد التي تضره حتى يهلك، ولهذا كانت العاقبة للتقوى وللمتقين، لأنهم المحتمون عما يضرهم فعاقبتهم الإسلام والكرامة وإن وجدوا ألماً في الابتداء لتناول الدواء والاحتماء، كفعل الأعمال الصالحة المكروهة، كما قال تعالى: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم**﴾(١) ولكثرة الأعمال الباطلة المشتهاة قال تعالى: ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى**﴾(٢). وكما قال: ﴿**وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم**﴾(٣). فأما من لم يحتم فإن ذلك سبب لضرره في العاقبة، ومن تناول ما ينفعه مع يسير من التخليط فهو أصلح ممن احتمى حمية كاملة ولم يتناول إلا شيئاً يسيراً، فإن الحمية التامة بلا اغتذاء تمرض فهكذا من ترك السيئات ولم يفعل الحسنات. وقد قدمنا في «قاعدة كبيرة» أن جنس الحسنات أنفع من جنس ترك السيئات، كما أن جنس الاغتذاء من جنس الاحتماء، وبينا أن هذا مقصود لنفسه، وذلك مقصود لغيره بالانضمام إلى غيره، وكما أن الواجب الاحتماء عن سبب المرض قبل حصوله، وإزالته بعد حصوله، فهكذا أمراض القلب يحتاج فيها إلى حفظ الصحة ابتداء، وإلى إعادتها ـ إن [عرض] له المرض ـ دواماً، والصحة تحفظ بالمثل، والمرض يزول بالضد: فصحة القلب تحفظ باستعمال أمثال ما فيها، وهو ما يقوى العلم

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

(٢) سورة النازعات: ٤١.

(٣) سورة الأنفال: ٧.

والإيمان من الذكر والتفكر والعبادات المشروعة، وتزول بالضد: فتزال الشبهات بالبينات، وتزال محبة الباطل ببغضه ومحبة الحق. ولهذا قال يحيى بن عمار «العلوم خمسة: فعلم هو حياة الدين، وهو علم التوحيد. وعلم هو غذاء الدين، وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث. وعلم هو دواء الدين، وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها كما قال ابن مسعود. وعلم هو داء الدين، وهو الكلام المحدث. وعلم هو هلاك الدين، وهو علم السحر ونحوه». فحفظ الصحة بالمثل، وإزالة المرض بالضد، في مرض الجسم الطبيعي ومرض القلب النفساني الديني الشرعي. قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»؟ ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم[1]: **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾**[2] أخرجاه في الصحيحين. قال تعالى: **﴿وله من في السماوات والأرض، كل له قانتون. وهو الذي يبدىء الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض - إلى قوله - بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم - إلى قوله - فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[3] فأخبر الله أنه فطر عباده على إقامة الوجه حنيفاً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب، وتركها ظلم عظيم اتبع أهله أهواءهم بغير علم. ولا بد لهذه الفطرة والخِلْقة - وهي صحة الخلقة - من قوت وغذاء يمدها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علماً وعملاً، ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملة بالشريعة المنزلة، وهي مأدبة الله، كما قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود «إن كل آدب يحب أن تؤتي مأدبته، وإن مأدبة

---

(١) راجع الصفحة ٢٦.
(٢) سورة الروم: ٣٠.
(٣) سورة الروم: ٢٦ - ٣٠.

الله هي القرآن»[١] ومثله كماء أنزله الله من السماء، كما جرى تمثيله بذلك في الكتاب والسنة. والمحرفون للفطرة المغيرون للقلب عن استقامته هم ممرضون للقلوب مسقمون لها، وقد أنزل الله كتابه شفاء لما في الصدور.

وما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب بمنزلة ما يصيب الجسم من الألم يصح به الجسم وتزول أخلاطه الفاسدة، كما قال النبي ﷺ «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى ـ حتى الشوكة يشاكها ـ إلا كفَّر الله بها خطاياه»[٢] وذلك تحقيق لقوله: ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾[٣] ومن لم يطهر في هذه الدنيا من هذه الأمراض فيثوب صحيحاً، وإلا احتاج إلى أن يطهر منها في الآخرة فيعذبه الله، كالذي اجتمعت فيه أخلاطه ولم يستعمل الأدوية لتخفيفها عنه، فتجتمع حتى يكون هلاكه بها. ولهذا جاء في الأثر «إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه، يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه»؟ وقال النبي ﷺ: «المرض حطة، يحط الخطايا عن صاحبه، كما تحط الشجرة اليابسة ورقها»[٤] وكما أن [من] أمراض الجسم ما إذا مات الإنسان منه كان شهيداً ـ كالمطعون والمبطون وصاحب ذات الجنب، وكذلك الميت بغرق أو حرق أو هدم ـ فمن أمراض النفس ما إذا اتقى العبد ربه فيه صبر عليه حتى مات كان شهيداً، كالجبان الذي يتقي الله ويصبر للقتال حتى يقتل. فإن البخل والجبن من أمراض النفوس إن أطاعه أوجب له الألم، وإن عصاه تألم، كأمراض الجسم. وكذلك العشق فقد روى من عشق، فعف، وكتم وصبر ثم مات، مات شهيداً». فإنه مرض في النفس يدعو إلى ما

---

(١) راجع الصفحة ٢٧.

(٢) صحيح البخاري: باب المرضى.

(٣) سورة النساء: ١٢٣.

(٤) البخاري: باب المرضى. عن عبد الله بن مسعود قال: دخلتُ على النبي ﷺ وهو يوعَكُ فمسستُه فقلت: انك لتوعك وعكاً شديداً قال: أجلْ كما يُوعَكُ رجلان منكم قال: لك أجران. قال: نعم ما من مسلم يصيبُهُ أذى مَرَضٌ فما سواهُ إلاّ حطّ اللّهُ سيئاته كما تحطُّ الشجرةُ ورقها.

يضر النفس، كما يدعو المريض إلى تناول ما يضر، فإن أطاع هواه عظم عذابه في الآخرة وفي الدنيا أيضاً وإن عصى الهوى بالعفة والكتمان صار في نفسه من الألم والسقم ما فيها، فإذا مات من ذلك المرض كان شهيداً، هذا يدعوه إلى النار فيمنعه، كالجبان تمنعه نفسه عن الجنة فيقدمها. فهذه الأمراض إذا كان معها إيمان وتقوى كانت كما قال النبي ﷺ «لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له[1]».

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزهد. عن صهيب قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله خير وليس ذاك لأحد «إلا للمؤمن، ان اصابته سراء شكر فكان خيراً له، وان أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

التحفة العراقية في الأعمال القلبية

تأليف شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية

(٦٦١ - ٧٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

أما بعد فهذه كلمات مختصرة في أعمال القلوب، التي تسمى المقامات والأحوال. وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك. اقتضى ذلك بعض من أوجب الله حقه من أهل الإيمان، واستكتبها وكل منا عجلان، فأقول:

هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل باتفاق أئمة الدين. والناس في هذا على ثلاث درجات، كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، فالظالم لنفسه العاصي بترك مأمور، وفعل محظور. والمقتصد المؤدي الواجبات والتارك المحرمات. والسابق بالخيرات المتقرب بما يقدر عليه من واجب ومسنون، والتارك للمحرم والمكروه وإن كان كل من المقتصد والسابق قد تكون له ذنوب تمحى عنه بتوبة، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين، إما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بغير ذلك. وكل من الصنفين المقتصدين والسابقين من أولياء الله الذين ذكرهم

في كتابه: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[1]، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، ولكن ذلك ينقسم إلى عام وهم المقتصدون وخاص وهم السابقون، وإن كان السابقون هم أعلى درجات كالأنبياء والصديقين، وقد ذكر النبي ﷺ القسمين في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله: من عادي لي ولياً فقد آذنتُهُ بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمْعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأُعِيْذَنَّهُ. وما ترددت عن شيء أنا فاعل ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته[2] ولا بد له منه. وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان ففيه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره. فالشخص الواحد قد تجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب، والسيئات المقتضية للعقاب، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب، وهذا قول أصحاب[3] رسول الله ﷺ وأئمة الإسلام[4] وأهل السنة[5] والجماعة الذين يقولون: إنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان. وأما

---

(١) سورة يونس: ٦٢.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الرقاق.

(٣) أصحاب؛ جمعُ صحابي وهو من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات وهو مسلم. وأوّل الصحابة السيِّدة خديجة بنت خويلد زوجة النبي، ومنهم العشرة المبشرون بالجنة ومنهم: أبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله.

(٤) وأشهرُ الأئمة: الإمام النعمان بن ثابت أبو حنيفة، والإمام مالك بن أنس، والإمام محمد بن ادريس الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام محمد بن اسماعيل البخاري، والإمام مسلم بن الحجاج القشيري.

(٥) السنّة: كل ما نُقل الينا عن الرسول ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير. وأكثر السنة ثابت بالوحي، وبعضها ثابت بالاجتهاد عن النبي ﷺ.

القائلون بالتخليد كالخوارج[1] أو المعتزلة[2] القائلين أنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة، وأنه لا شفاعة للرسول ولا لغيره في أهل الكبائر، لا قبل دخول النار ولا بعدها، فعندهم لا يجتمع في الشخص الواحد ثواب وعقاب وحسنات وسيئات، بل من أثيب لا يعاقب ومن عوقب لم يثب. ودلائل هذا الأصل من الكتاب والسنة وإجماع الأمة كثير ليس هذا هو موضعه، قد بسطناه في موضعه. وينبني على هذا أمور كثيرة، ولهذا من كان معه إيمان حقيقي فلا بد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه وإن كان له ذنوب، كما رواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن رجلاً كان يسمى حماراً، وكان يضحك النبي ﷺ، وكان يشرب الخمر ويجلده النبي ﷺ. فأتى به مرة فقال رجل: لعنه الله ما أكثر ما يؤتي به إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: لا تلعنه. فإنه يحب الله ورسوله[3]، فهذا بين أن المذنب بالشراب وغيره قد يكون محباً لله ورسوله، وحب الله ورسوله أوثق عرى الإيمان، كما أن العابد الزاهد قد يكون ـ لما في قلبه من بدعة ونفاق ـ مسخوطاً عند الله ورسوله من ذلك الوجه، كما استفاض في الصحاح وغيرها من حديث علي بن أبي طالب وأبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه ذكر الخوارج فقال: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع وصيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»[4]. وهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ مع أمير

---

(٢) الخوارج: كلّ من خرج على الإمام الذي اتفقت الجماعةُ عليه يسمّى خارجياً. وأوّل من خرج على علي (ض) جماعة في حرب صفين هم أكثر الخوارج مروقاً من الدين ومنهم: الأشعث بن قيس الكندي. وانقسم الخوارج إلى: الأزارقة، والنجدات، والصفرية...

(٢) المعتزلة: أو القدرية، وقد أطلق عليهم أهلُ السنة لقب المعتزلة لاعتزالهم قول الأمة بأسرها في مرتكب الكبيرة، ولأنهم يرون أنّ الناس هم الذين يقدرون أعمالهم وأنّ الله تعالى ليس له فيها صنع ولا تقدير.

(٣) صحيح البخاري: الجهاد، وفضائل الصحابة.

(٤) صحيح مسلم: باب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج، وقتالهم، وصحيح البخاري: التوحيد، المناقب

المؤمنين علي بن أبي طالب بأمر النبي ﷺ، وقال النبي ﷺ فيهم في الحديث الصحيح: «تمرق مارقة على خير فرقة من المسلمين يقتلهم أدنى الطائفتين»[1] ولهذا قال أئمة المسلمين كسفيان الثوري: إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها. ومعنى قولهم أن البدعة لا يتاب منها أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ورسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه، أو أنه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب أو أمر استحباب ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب، ولكن التوبة ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق، كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال، وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه: فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى: **﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾**[2] وقال: **﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً. وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً، ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾**[3] وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾**[4] وقال تعالى: **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾**[5] وقال تعالى: **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾**[6] الآية. وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة. وكذلك من أعرض عن أتباع الحق الذي يعلمه

---

(١) صحيح مسلم: باب الزكاة.
(٢) سورة محمد: ١٧.
(٣) سورة النساء: ٦٦.
(٤) سورة الحديد: ٢٨.
(٥) سورة البقرة: ٢٥٧.
(٦) سورة المائدة: ١٥.

تبعاً لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى: **﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾**(١) الآية، وقال تعالى: **﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾**(٢)، وقال تعالى: **﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند الله، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾**(٣) الآية، وهذا استفهام نفي وإنكار، أي وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وإنا **﴿نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾**(٤) على قراءة من قرأ إنها بالكسر تكون جزماً بأنها **﴿إذا جاءت لا يؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾** ولهذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير(٥): إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» (٦) فأخبر النبي ﷺ أن الصدق أصل يستلزم البر، وأن الكذب يستلزم الفجور. وقد قال تعالى: **﴿إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم﴾**(٧) ولهذا كان بعض

---

(١) سورة الصف: ٥.

(٢) سورة البقرة: ١٠.

(٣) سورة الأنعام: ١٠٩.

(٤) سورة الأنعام: ١١٠.

(٥) سعيد بن جُبير الأسدي الكوفي (٤٥ ـ ٩٥) هـ المقرىء الناسك، قال عنه ميمون بن مهران: مات سعيد بن جُبير وما على الأرض رجلٌ وهو محتاج إلى علمه، قتله الحجاج سنة ٩٥ هـ.

(٦) صحيح البخاري: باب الأدب، وصحيح مسلم: باب البرّ، وابن ماجه: المقدمة.

(٧) سورة الانفطار: ١٣.

المشايخ إذا أمر متبعيه بالتوبة وأحب أن لا ينفر ويتعب قلبه أمره بالصدق، ولهذا يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمته ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولون: قل لمن لا يصدق لا يتبعني. ويقولون: الصدق سيف الله في الأرض، ما وضع على شيء إلا قطعه. ويقول يوسف بن أسباط وغيره: ما صدق الله عبد إلا صنع له. وأمثال هذا كثير. والصدق والإخلاص هما تحقيق الإيمان والإسلام، فإن المظهرين الإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، فالفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق، كما في قوله: ﴿**قالت الأعراب آمنا. قل لم تؤمنوا، ولكن قولوا أسلمنا ـ إلى قوله ـ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون**﴾[2] فأخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يتعقب إيمانهم به، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري**﴾[3] الآية. قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ليؤمنن به ولينصرنه. وقال تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز**﴾[4]، فذكر تعالى أنه

---

(١) سورة الحجرات: ١٤ ـ ١٥.

(٢) سورة الحشر: ٨.

(٣) سورة آل عمران: ٨١.

(٤) سورة الحديد: ٢٥.

أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط، وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين بكتاب يهدي وسيف ينصر، وكفى بربك هادياً ونصيراً، والكتاب والحديد وإن اشتركا في الإنزال فلا يمنع أن يكون أحدهما نزل من حيث لم ينزل الآخر، حيث نزل الكتاب من الله كما قال تعالى (أول الزمر): **﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾**[1] وقال تعالى: **﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾**[2] وقال: **﴿وإنك لتلقي القرآن من لدن حكيم عليم﴾**[3]. والحديد أنزل من الجبال التي يخلق فيها، وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون﴾**[4]. وأما المنافقون فوصفهم بالكذب في آيات متعددة كقوله: **﴿في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾**[5]. وقوله: **﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾**[6] وقال: **﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه، وبما كانوا يكذبون﴾**[7] ونحو ذلك من القرآن كثير.

ومما ينبغي أن يعرف أن (الصدق والتصديق) يكون في الأقوال والأعمال، كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح «كتب على ابن آدم حظه من الزنا، فهو مدرك ذلك لا محالة: فالعينان تزنيان وزناهما النظر،

---

(١) سورة الزمر: ١.

(٢) سورة هود: ١.

(٣) سورة النمل: ٦.

(٤) سورة البقرة: ١٧٧.

(٥) سورة البقرة: ١٠.

(٦) سورة المنافقون: ١.

(٧) سورة التوبة: ٧٧.

والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه»[1] ويقال: حملوا على العدو حملة صادقة إذا كان إرادتهم القتال ثابتة صادقة، ويقال: فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك. ولهذا يراد بالصادق الصادق في إرادته وقصده وطلبه، وهو الصادق في عمله ويريدون الصادق في خبره وكلامه. والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذباً في خبره أو كاذباً في عمله. كالمرائي في عمله. قال الله تعالى: **﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس﴾**[2] الآيتين.

وأما (الإخلاص) فهو حقيقة الإسلام، إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره كما قال تعالى: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون، ورجلاً سلما لرجل، هل يستويان﴾**[3]؟. فمن لم يستسلم له فقد استكبر، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام، والإسلام ضد الشرك والكبر. وذلك في القرآن كثير، ولهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وهي متضمنة عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين ديناً سواه، كما قال تعالى: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**[4] وقال: **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام﴾**[5] وهذا الذي ذكرنا مما يبين أن أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٤١١، ٥٣٨، ٥٣٦.

(٢) سورة النساء: ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) سورة الزمر: ٢٩.

(٤) سورة آل عمران: ٨٥.

(٥) سورة آل عمران: ١٨.

تنفع بدونها، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في مسنده «الإسلام علانية، والإيمان في القلب»[1] ولهذا قال النبي ﷺ «الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور ومشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، وهي القلب»[2] وعن أبي هريرة قال «القلب ملك والأعضاء جنوده. فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبثت خبثت جنوده».

فصل

وهذه الأعمال الباطنة - كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك - كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، لا يكون تركها محموداً في حال واحد وإن ارتقى مقامه. وأما الحزن فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق أمر الدين به كقوله تعالى: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾[3] وقوله: ﴿**ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون**﴾[4] وقوله: ﴿**إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾[5] وقوله: ﴿**ولا يحزنك قولهم**﴾[6] وقوله: ﴿**لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾[7] وأمثال ذلك كثيرة. وذلك أنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣، ١٣٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الايمان، وصحيح مسلم: المساقاة.

(٣) سورة آل عمران: ١٣٩.

(٤) سورة النحل: ١٢٧.

(٥) سورة التوبة: ٤٠.

(٦) سورة يونس: ٦٥.

(٧) سورة الحديد: ٢٣.

ولا فائدة فيـه، وما لا فـائدة فيـه لا يأمـر الله به. نعم لا يـأثم صاحبـه إذا لم يقترن بحزنه محرم كمـا يحزن على المصـائب كما قـال النبي ﷺ «إن الله لا يؤاخـذ على دمع العين ولا حـزن القلب، ولكن يؤاخـذ على هـذا ويـرحم - وأشار بيده إلى لسـانه»[1] وقـال «تدمـع العين ويحزن القلب ولا نقـول إلا ما يـرضى الـرب»[2] ومنـه قـولـه تعـالى : ﴿**فتـولى عنهم وقـال يـا أسفي على يوسف، وابيضت عيناه من الحزن فهو كـظيم**﴾ [3] . وقد يقتـرن بالحـزن ما يثاب صاحبـه عليه ويحمـد عليه ويكـون محموداً من تلك الجهـة لا من جهة الحـزن، كالحـزين على مصيبة في دينـه وعلى مصـائب المسلمين عمـومـاً، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتـوابع ذلـك، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمـور من الصبر والجهـاد وجلب منفعة ودفـع مضرة منهى عنهـا، وإلا كان حسب صـاحبه رفـع الإثم عنـه من جهـة الحـزن، وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغـاله بـه عن فعل مـا أمـر الله ورسـوله بـه كان مـذمومـاً عليه من تلك الجهـة، وإن كان محمـوداً من جهـة أخرى. وأما المحبـة لله والتوكـل والإخلاص لـه ونحو ذلـك فهذه كلهـا خير محض، وهي حسنـــة محبـوبـــة في حق كـل النبيين والصـــديقين والشهـداء والصـالحين. ومن قال إن هـذه المقامـات تكون للعـامة دون الخـاصـة فقـد غلط في ذلك إن أراد خروج الخـاصة عنهـا، فإن هـذه لا يخرج عنهـا مؤمن قط، وإنما يخرج عنها كافر ومنافق.

وقـد تكلم بعضهم بكلام بيّنـا غلطه فيـه وأنـه تقصيـر في تحقيق هـذه المقامات من مدة، وليس هذا مـوضعه، ولكن هـذه المقامـات ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم، فللخاصـة خاصها والعـامة عـامها. مثـال ذلك أن

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائـز عن عبد الله بن عمـر رضي الله عنهما قـال: قال رسـول الله ﷺ: ألا تـسمـعـون إنّ الله يعــذّبُ بـدمـع العيـن ولا بحُـزنِ الـقلبِ، ولـكنْ يـعـذّبُ بهذا، وأشار الى لسانه، أو يرحمُ، وإنّ الميّت يُعذّبُ ببكاءِ أهلهِ عليه.

(٢) صحيح البخاري: باب الجنائز، وصحيح مسلم: الفضائل.

(٣) سورة يوسف: ٨٤.

هؤلاء قالوا: إن التوكل مناضلة عن النفس في طلب القوت، والخاص لا يناضل عن نفسه. وقالوا: المتوكل يطلب بتوكله أمراً من الأمور، والعارف يشهد الأمور بفروغه منها فلا يطلب شيئاً. فيقال: أما الأول فإن التوكل أعم من التوكل في مصالح الدنيا، فإن المتوكل يتوكل على الله في صلاح قلبه ودينه وحفظ لسانه وإرادته، وهذا أهم الأمور إليه، ولهذا يناجي ربه في كل صلاة بقوله ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[1] كما في قوله: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾[2] وقوله: ﴿**عليه توكلت وإليه أنيب**﴾[3] فهو قد جمع بين العبادة والتوكل في عدة مواضع، لأن هذين يجمعان الدين كله، ولهذا قال من قال من السلف: إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصل، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[4]، وهاتان الكلمتان الجامعتان اللتان للرب والعبد كما في الحديث الصحيح الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «يقول الله سبحانه: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، نصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، قال رسول الله ﷺ: يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، يقول الله: حمدني عبدي، يقول العبد: الرحمن الرحيم، يقول الله: أثنى عليّ عبدي، يقول العبد مالك يوم الدين، يقول الله: مجدني عبدي. يقول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين، يقول الله: فهذه الآية بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. يقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، يقول الله: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل»[5] فالرب سبحانه له نصف الثناء والخير والعبد له

---

(١) سورة الفاتحة: ٤.
(٢) سورة هود: ١٢٣.
(٣) سورتا هود والشورى: ٨٨، ١٠.
(٤) سورة الفاتحة: ٤.
(٥) صحيح مسلم: كتاب الصلاة.

نصف الدعاء والطلب، وهاتان جامعتان ما للرب سبحانه وما للعبد، فإياك نعبد للرب وإياك نستعين للعبد. وفي الصحيحين عن معاذ رضي الله عنه قال «كنت رديفاً للنبي ﷺ على حمار فقال: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به»(١) والعبادة هي الغاية التي خلق الله لها العباد من جهة أمر الله ومحبته ورضاه كما قال تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾(٢)، وبها أرسل الرسل وأنزل الكتب، وهي اسم يجمع كمال الذل ونهايته وكمال الحب لله ونهايته، فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله، وهي وإن كانت منفعتها للعبد والله غني عنها فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها، ولهذا كان الله أشد فرحاً بتوبة العبد من الفاقد لراحلته عليها طعامه وشرابه في أرض دوية مهلكة إذا نام آيساً منها ثم استيقظ فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته. وهذا يتعلق به أمور جليلة قد بسطناها وشرحناها في غير هذا الموضع. والتوكل والاستعانة للعبد لأنه هو الوسيلة والطريق الذي ينال به مقصوده ومطلوبه من العبادة، فالاستعانة كالدعاء والمسألة. وقد روى الطبراني في كتاب الدعاء عن النبي ﷺ قال «يقول الله: يا ابن آدم إنما هي أربع واحدة لي، وواحدة لك وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين خلقي. فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي هل لك فعملك أجازيك به أحوج ما تكون إليه، وأما التي بيني وبينك فمنك الدعاء وعليّ الإجابة، وأما التي بينك وبين خلقي فأت للناس ما تحب أن يأتوا إليك»(٣)، وكون هذا لله وهذا للعبد هو اعتبار تعلق المحبة والرضاء ابتداء، فإن العبد ابتداء يحب ويريد ما يراه

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الايمان.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

(٣) معجم الطبراني: كتاب الدعاء.

ملائماً له، والله تعالى يحب ويرضى ما هو الغاية المقصودة في رضاه، وحبه الوسيلة تبعاً لذلك، وإلا فكل مأمور به فمنفعته عائدة على العبد وكل ذلك يحبه الله ويرضاه. وعلى هذا فالذي ظن أن التوكل من المقامات العامة ظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا، وهو غلط، بل التوكل في الأمور الدينية أعظم، وأيضاً التوكل في الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها، والزاهد فيها زاهد فيما يحبه الله ويأمر به ويرضاه، والزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، وهو فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة الله، كما أن الورع المشروع هو ترك ما قد يضر في الدار الآخرة وهو ترك المحرمات والشبهات التي لا يستلزم تركها ترك ما فعله أرجح منها كالواجبات، فأما ما ينفع في الدار الآخرة بنفسه أو على ما ينفع في الدار الآخرة فالزهد فيه ليس من الدين بل صاحبه داخل في قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾**[1] كما أن الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع، فإن اشتغل بها عن واجب أو بفعل محرم كان عاصياً، وإلا كان منقوصاً عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين. وأيضاً فالتوكل هو محبوب لله مرضي مأمور به دائماً، وما كان محبوباً لله مرضياً مأموراً به دائماً لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين. فهذه ثلاثة أجوبة عن قولهم المتوكل لا يطلب حظوظه.

وأما قولهم الأمور قد فرغ منها، فهذا نظير ما قاله بعضهم في الدعاء أنه لا حاجة إليه، لأن المطلوب إن كان مقدراً فلا حاجة إليه، وإن لم يكن مقدراً لم ينفع. وهذا القول من أفسد الأقوال شرعاً وعقلاً، وكذلك قول من قال: التوكل والدعاء لا يجلب به منفعة ولا يدفع به مضرة، وإنما هو عبادة محضة، وإن حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض. وهذا وإن كان قاله طائفة من المشايخ فهو غلط أيضاً. وكذلك قول من

---

(١) سورة المائدة: ٨٧.

قال: الدعاء إنما هو عبادة محضة. فهذه الأقوال وما أشبهها يجمعها أصل واحد، وهو أن هؤلاء ظنوا أن كون الأمور مقدرة مقضية يمنع أن يتوقف على أسباب مقدرة أيضاً تكون من العبد، ولم يعلموا أن الله سبحانه يقدر الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها من أفعال العباد وغير أفعالهم، ولهذا كان طور قولهم يوجب تعطيل الأعمال بالكلية، وقد سئل النبي ﷺ عن هذا مرات، فأجاب عنه، كما أخرجاه في الصحيحين عن عمران بن حصين قال «قيل لرسول الله ﷺ: أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم. قالوا: ففيم العمل؟ قال: كل ميسر لما خلق له»[1] وفي الصحيحين عن علي بن أبي طالب قال «كنا في جنازة فيها رسول الله ﷺ، فجلس ومعه مخصرة، فجعل ينكت بالمخصرة في الأرض، ثم رفع رأسه وقال: ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من النار أو الجنة، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة. قال فقال رجل من القوم: يا نبي الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة. قال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له: أما أهل السعادة فييسرون للسعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة»[2]. ثم قال نبي الله ﷺ: ﴿**فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى**﴾[3] أخرجه الجماعة في الصحاح والسنن والمسانيد. وروى الترمذي «أن النبي ﷺ سئل فقيل: يا رسول الله أرأيت أدوية تداوي بها، ورقي نسترقي بها، وتقي نتقيها، أترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: هي من قدر الله»[4]، وقد جاء هذا المعنى عن النبي ﷺ في عدة أحاديث. فبين ﷺ أن تقدم العلم والكتاب بالسعيد والشقي لا ينافي أن تكون سعادة

---

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر.

(٢) صحيح مسلم: كتاب القدر.

(٣) سورة الليل: ٥.

(٤) سنن الترمذي: باب الطب وباب القدر.

هـذا بالأعمـال الصالحـة وشقاوة هـذا بالأعمـال السيئة، فـإنه سبحـانـه يعلم الأمـور على مـا هي عليه، وكـذلـك يكتبهـا، فهـو يعلم أن السعيـد يسعـد بالأعمال الصالحة، والشقي يشقى بـالأعمال السيئـة، فمن كان سعيـداً ييسر لـلأعمال الصـالحة، والشقي يشقى بـالأعمال السيئـة، فمن كـان لـلأعمـال السيئة التي تقتضي الشقاوة، كلاهما ميسـر لما خلق لـه، وهو مـا يصير إليـه من مشيئـة الله العامـة الكونيـة التي ذكرهـا الله سبحانـه في كتـابـه في قـولـه تعالى: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم﴾[1].

وأمـا مـا خلقـوا لـه من محبـة الله ورضـاه وهـو إرادتـه الـدينيـة وأمـره بمـوجبـاتهـا فـذلـك مـذكـور في قـولـه: ﴿ومـا خلقت الجن والإنس إلا ليعبـدون﴾[2] والله سبحانـه قد بين في كتـابـه في كـل واحـدة من الكلمـات والأمـر والإرادة والإذن والكتاب والحكم والقضـاء والتحريم ونحـو ذلك ممـا هـو ديني موافقتـه لمحبة الله ورضـاه وأمره الشـرعي، وما هـو كوني مـوافقتـه لمشيئته الكونية. مثال ذلك أنه قال في الأمر الـديني: ﴿إن الله يأمـر بالعـدل والإحسـان وإيتاء ذي القـربى﴾[3] وقـال تعـالى: ﴿إن الله يـأمـركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلهـا﴾[4] ونحو ذلـك. وقال في في الكـوني: ﴿إنما أمـره إذا أراد شيئاً أن يقول لـه كن فيكون﴾[5] وكـذلك قـوله: ﴿وإذا أردنـا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقـوا فيها فحق عليهـا القول﴾[6] على أحـد الأقوال في هـذه الآية. وقـال في الإرادة الدينيـة: ﴿يريـد الله بكم اليسر ولا يـريد بكم العسـر﴾[7]، ﴿يريـد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الـذين من قبلكم ويتـوب

---

(١) سورة هود: ١١٨.
(٢) سورة الذاريات: ٥٦.
(٣) سورة النحل: ٩٠.
(٤) سورة النساء: ٥٨.
(٥) سورة يس: ٨٢.
(٦) سورة الاسراء: ١٦.
(٧) سورة البقرة: ١٨٥.

عليكم والله عليم حكيم﴾ [1]، ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم﴾ [2]. وقال في الإرادات الكونية: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ [3] وقال ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾[4] ، وقال نوح عليه السلام: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾[5]، وقال: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقوله له كن فيكون﴾[6]، وقال في الإذن الديني: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله﴾[7]، وقال في الكوني: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾[8]، وقال في القضاء الديني: ﴿وقضى ربك ألا تبعدوا إلا إياه﴾[9] أي أمر، وقال في الكوني: ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾[10]؛ وقال في الحكم الديني: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم، إن الله يحكم ما يريد﴾[11]وقال: ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم﴾[12]، وقال في الكوني عن ابن يعقوب: ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين﴾[13]، وقال: ﴿﴿قال

---

(١) سورة النساء: ٢٦.
(٢) سورة المائدة: ٦.
(٣) سورة البقرة: ٢٥٣.
(٤) سورة الأنعام: ١٢٥.
(٥) سورة هود: ٣٤.
(٤) سورة يس: ٨٢.
(٥) سورة الحشر: ٥.
(٦) سورة البقرة: ١٠٢.
(٧) سورة الاسراء: ٢٣.
(١٠) سورة فصلت: ١٢.
(١١) سورة المائدة: ١.
(١٢) سورة الممتحنة: ١٠.
(١٣) سورة يوسف: ٨٠.

رب احكم بالحق، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾[1]، وقال في التحريم الديني: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾[2]، ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم﴾[3]، وقال في التحريم الكوني: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾[4]. وقال في الكلمات الدينية: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾[5]، وقال في الكونية: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾[6]. ومنه قوله ﷺ المستفيض عنه من وجوه في الصحاح والسنن والمسانيد أنه كان يقول «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[7]. ومن المعلوم أن هذا هو الكوني الذي لا يخرج منه شيء عن مشيئته وتكوينه، وأما الكلمات الدينية فقد خالفها الكفار بمعصيته.

والمقصود هنا أنه ﷺ بين أن العواقب التي خلق لها الناس سعادة وشقاوة ييسرون لها بالأعمال التي يصيرون بها إلى ذلك، كما أن سائر المخلوقات كذلك، فهو سبحانه خلق الولد وسائر الحيوان في الأرحام بما يقدره من اجتماع الأبوين على النكاح واجتماع الماءين في الرحم، فلو قال الإنسان: أنا أتوكل ولا أطأ زوجتي، فإن كان قد قضى لي بولد وإلا لم يوجد ولا حاجة إلى وطء، كان أحمق، بخلاف ما إذا وطىء وعزل الماء فإن عزل الماء لا يمنع انعقاد الولد إذا شاء الله، إذ قد يخرج بغير اختياره، وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال «خرجنا مع

---

(١) سورة الأنبياء: ١١٢.
(٢) سورة المائدة: ٣.
(٣) سورة النساء: ٢٣.
(٤) سورة المائدة: ٢٦.
(٥) سورة البقرة: ١٢٤.
(٦) سورة الأعراف: ١٣٧.
(٧) صحيح البخاري: باب الأنبياء وصحيح مسلم: باب الدعوات، ومسند أبي داود: باب الطب وباب السنّة، وسنن الترمذي: باب الطب، وباب الدعوات، وسنن ابن باجه: باب الطب، وسنن الدارمي: باب الاستئذان، والموطأ لابن مالك؛ باب الشعر وباب الاستئذان، ومسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢، ١٨١، ٢٩٠، ٣٧٥، ٥، ٤٣٠.

رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، فأصبنا سرايا من العرب، فاشتهينا النساء، واشتدت علينا العزبة وأحببنا العزل، فسألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما عليكم ألا تفعلوا، فإن الله قد كتب ما هو خالق إلى يوم القيامة»[١] وفي صحيح مسلم عن جابر «إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جارية هي خادمتنا وسانيتنا في النخل، وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال: أعزل عنها إن شئت، فإنه سيأتيها ما قدر لها»[٢] وهذا مع أن الله سبحانه قادر على ما قد فعله من خلق الإنسان من غير أبوين كما خلق آدم، ومن خلقه من أب فقط كما خلق حواء من ضلع آدم القصير، ومن خلقه من أم فقط كما خلق المسيح بن مريم عليه السلام، لكن خلق ذلك بأسباب أخرى غير معتادة. وهذا الموضع وإن كان يجحده الزنادقة المعطلون للشرائع فقد وقع في كثير من[٣]، وكثير من المشايخ المعظمين يسترسل أحدهم مع القدر غير محقق لما أمر به ونهى عنه، ويجعل ذلك من باب التفويض والتوكل ويجري مع الحقيقة القدرية، ويحسب أن قول القائل: ينبغي للعبد أن يكون مع الله كالميت بين يدي الناس يتضمن ترك العمل بالأمر والنهي حتى يترك ما أمر به ويفعل ما نهى عنه، وحتى يضعف عنده النور والفرقان والذي يفرق به بين ما أمر الله به وأحبه وأرضاه وبين ما نهى عنه وأبغضه وسخطه، فيسوي بين ما فرق الله بينه، قال تعالى: ﴿**أم حسب الذين اجترحوا السيئات، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون**﴾[٤] وقال تعالى: ﴿**أفنجعل**

---

(١) صحيح البخاري: باب المغازي: عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، فأصبْنا سبياً من سبي العرب، فاشتهينا النساء، واشتدّت علينا العُزْبةُ وأحبّنا العزْل، فأردْنا أن نعزل، وقلنا: نعزلُ ورسولُ الله ﷺ بين أظهرُنا قبل أنْ نسألهُ: فسألناهُ عن ذلك، فقال: ما عليكم أنْ لا تفعلوا ما من نسمةٍ كائنةٍ إلى يومِ القيامة ألا وهي كائنة».

(٢) صحيح مسلم: باب الطلاق.

(٣) كذا النسخة.

(٤) سورة الجاثية: ٢١.

المسلمين كالمجرمين؟ ما لكم كيف تحكمون﴾[1]؟ وقال تعالى: **﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار﴾**[2]؟ وقال تعالى: **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾**[3]؟ وقال تعالى: **﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات، إن الله يسمع من يشاء، وما أنت بمسمع من في القبور﴾**[4] وأمثال ذلك، حتى يفضي الأمر بغلاتهم إلى عدم التمييز بين الأمر بالمأمور النبوي الإلهي الفرقاني الشرعي الذي دل عليه الكتاب والسنة، وبين ما يكون في الوجوه من الأحوال التي تجري على أيدي الكفار والفجار، فيشهدون وجه الجمع من جهة الجمع بقضاء الله وقدره وربوبيته وإرادته العامة وأنه داخل في ملكه، ولا يشهدون وجه الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه والأبرار والفجار والمؤمنين والكافرين وأهل الطاعة الذين أطاعوا أمره الديني وأهل المعصية الذين عصوا هذا الأمر، ويشهدون في ذلك بكلمات مجملة نقلت عن بعض الأشياخ، أو ببعض غلطات بعضهم. وهذا أصل عظيم من أعظم ما يجب الاعتناء به على أهل طريق الله السالكين سبيل إرادة الذين يريدون وجهه، فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم من الكفر والفسوق والعصيان ما لا يعلمه إلا الله، حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان للمسلطين في الأرض من أهل الظلم والعلو، الذين يتوجهون بقلوبهم في معاونة من يهوونه من أهل العلو في الأرض والفساد ظانين أنهم إذا كانت لهم أحوال أثروا بها في ذلك من أولياء الله، فإن القلوب لها من التأثير أعظم مما للأبدان، لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسداً، فالأحوال يكون تأثيرها

---

(١) سورة القلم: ٣٥.
(٢) سورة ص: ٢٨.
(٣) سورة الزمر: ٩.
(٤) سورة فاطر: ١٩.

محبوباً لله تارة ومكروهاً لله أخرى، وقد تكلم الفقهاء على وجوب القود على من يقتل بغيره في الباطن حيث يجب القود في ذلك، ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكوني، ويعلون مجرد خرق العادة لأحدهم بكشف لهم أو بتأثير يوافق إرادته هو كرامة من الله له، ولا يعلمون أنه في الحقيقة إهانة، وأن الكرامة لزوم الاستقامة، وأن الله لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾(١) فإن كانوا موافقين له فيما أوجبه عليهم فهم من المقتصدين، وإن كانوا موافقين فيما أوجبه وأحبه فهم من المقربين، مع أن كل واجب محبوب وليس كل محبوب واجباً. وأما ما يبتلي الله به عبده من الشر بخرق العادة أو بغيرها أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه، بل قد يسعد بها أقوام إذا أطاعوه في ذلك، وقد يشقى بها قوم إذا عصوه في ذلك. قال الله تعالى: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن، كلا**﴾(٢).

ولهذا كان الناس في هذه الأمور على ثلاثة أقسام: قسم ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها في الطاعة. وقوم يتعرضون بها لعذاب الله إذا استعملوها في معصية الله كبلعام وغيره. وقوم تكون في حقهم بمنزلة المباحات. والقسم الأول هم المؤمنون حقاً المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم الذي إنما كانت خوارقه لحجة يقيم بها دين الله، أو لحاجة يستعين بها على طاعة الله.

ولكثرة الغلط في هذا الأصل نهى رسول الله ﷺ عن الاسترسال مع القدر بدون الحرص على فعل المأمور الذي ينفع العبد، فروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال «قال رسول الله ﷺ: المؤمن القوي خير وأحب

(١) سورة يونس: ٦٢.

(٢) سورة الفجر: ١٥ ـ ١٧.

إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»(١) وفي سنن أبي داود «أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما، فقال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال رسول الله ﷺ: إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل»(٢) فأمر النبي ﷺ المؤمن أن يحرص على ما ينفعه وأن يستعين بالله، وهذا مطابق لقوله ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾(٣) وقوله: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾(٤) فإن الحرص على ما ينفع العبد هو طاعة الله وعبادته، إذ النافع له هو طاعة الله، ولا شيء أنفع له من ذلك، وكل ما يستعان به على الطاعة فهو طاعة وإن كان من جنس المباح، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لسعد «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تضعها في في امرأتك»(٥) فأخبر النبي ﷺ أن الله يلوم على العجز الذي هو ضد الكيس، وهو التفريط فيما يؤمر بفعله، فإن ذلك ينافي القدوة المقارنة للفعل، وإن كان لا ينافي القدرة المقدمة التي هي مناط الأمر والنهي، فإن الاستطاعة التي توجب الفعل وتكون مقارنة له لا تصلح إلا لمقدورها كما ذكرها في قوله: ﴿**ما كانوا يستطيعون السمع**﴾(٦) وقوله: ﴿**وكانوا لا يستطيعون سمعاً**﴾(٧) وأما الاستطاعة التي يتعلق بها الأمر والنهي فتلك قد يقترن بها الفعل وقد لا يقترن، كما في قوله: ﴿**ولله على الناس حج البيت من**

---

(١) صحيح مسلم: باب القدر.

(٢) مسند أبي داود: باب الوتر.

(٣) سورة الفاتحة: ٤.

(٤) سورة هود: ١٢٣.

(٥) صحيح البخاري: باب المناقب، وباب الوصايا، وصحيح مسلم: باب الوصايا.

(٦) سورة هود: ٢٠.

(٧) سورة الكهف: ١٠١.

استطاع إليه سبيلاً﴾[1]، وقوله ﷺ لعمر أن «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك»[2].

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه على أربعة أقسام:

قوم ينظرون إلى جانب الأمر والنهي والعبادة والطاعة، شاهدين لألوهيته سبحانه الذي أمروا أن يعبدوه، ولا ينظروا إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة. وهو حال كثير من المتفقهة المتعبدة، فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله وشعائره يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان، والاستعانة بالله والتوكل عليه واللجاء إليه والدعاء له هي التي تقوى العبد وتيسر عليه الأمور، ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله. وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو «أن رسول الله ﷺ صفته في التوراة: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين. أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح بك أعيناً عمياً وآذاناً صما وقلوباً غلفاً بأن يقولوا: لا إله إلا الله[3]، ولهذا روى أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم: لا حول ولا قوة إلا بالله. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ «أنها كنز من كنوز الجنة»[4]

---

(١) سورة آل عمران: ٩٧.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الصلاة كتاب الأذان، وصحيح مسلم: كتاب الصلاة.

(٣) صحيح البخاري: باب البيوع عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي اللّهُ عنهما: أنه سُئل عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجلْ والله إنهُ لموصوفٌ في التوراة ببعض صفاته في القرآن يا أيها النبي إنّها أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً» وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتُك المتوكل، ليس بفظٍ ولا غليظٍ ولا سخّابٍ في الأسواق، ولا يدفعُ بالسيئة السيّئة، ولكنْ يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتّى يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا: لا إلّه إلا الله ويفتحُ بها اللّهُ أعيناً عُمياً، وقلوباً غُلْفاً».

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٥، ١٥٦.

قال تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل - إلى قوله - فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾[2]، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس في قوله: ﴿**وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾: قالها إبراهيم الخليل حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم[3].

وقسم ثان يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه، ويستعينون بها على أهوائهم وأذواقهم، غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه، ورضاه وغضبه ومحبته. وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة. ولهذا كثيراً ما يعملون على الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود، لا يقصدون ما يرضى الرب ويحبه. وكثيراً ما يغلطون فيظنون أن معصيته هي مرضاته فيعودون إلى تعطيل الأمر والنهي، ويسمون هذا حقيقة، ويظنون أن هذه الحقيقة الأمرية الدينية هي التي تحوي مرضاة الرب ومحبته وأمره ونهيه ظاهراً وباطناً. وهؤلاء كثيراً ما يسلبون أحوالهم، وقد يعودون إلى نوع من المعاصي والفسوق، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام لأن العاقبة للتقوى، ومن لم يقف عند أمر الله ونهيه فليس من المتقين، فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه تارة من بدعة يظنونها في سورة الأنعام ذكر ما ابتدعوه في الدين وجعلوه شرعة كما قال تعالى: ﴿**وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء**﴾[4] وقد ذمهم على أن حرموا ما لم يحرمه الله وأن شرعوا ما لم يشرعه الله، وذكر احتجاجهم

---

(١) سورة الطلاق: ٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥.

(٣) صحيح البخاري: باب التفسير، والآية: سورة آل عمران: ١٧٣ وكذلك قوله تعالى: ﴿**إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ آل عمران: ١٧٣.

(٤) سورة الأعراف: ٢٨.

بالقدر. قوله: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾[1] ونظيرها في النحل ويس والزخرف، وهؤلاء يكون فيهم شبهة في هذا وهذا.

وأما القسم الثالث ـ وهو من أعرض عن عبادة الله واستعانته به ـ فهؤلاء شر الأقسام.

والقسم الرابع هو القسم المحمود، وهو حال الذين حققوا ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[2]، وقوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾[3]، فاستعانوا به على طاعته، وشهدوا أنه إلههم الذي لا يجوز أن يعبدوا إلا إياه وطاعة رسوله، وأنه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع وأنه: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾[4]، ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله﴾[5]، ﴿قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله، إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره، أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾[6]؟ ولهذا قال طائفة من العلماء: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل المأمور به ما يجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع. فقد بين أن من ظن التوكل من مقامات عامة أهل الطريق فقد غلط غلطاً شديداً وإن كان من أعيان المشايخ كصاحب «علل المقامات»، وهو من أجل المشايخ، وأخذ ذلك عنه صاحب «محاسن المجالس» وأظهر ضعف حجته، فمن قال ذلك (قال):

(١) سورة الأنعام: ١٤٨.
(٢) سورة فاتحة الكتاب: ٤.
(٣) سورة هود: ١٢٣.
(٤) سورة فاطر: ٢.
(٥) سورة يونس: ١٠٧.
(٦) سورة الزمر: ٣٨.

إن المطلوب به حظ العامة فقط، وظنه أنه لا فائدة له في تحصيل المقصود، وهذه حال من جعل الدعاء كذلك، وذلك بمنزلة من جعل الأعمال المأمور بها كذلك، كمن اشتغل بالتوكل عما يجب عليه من الأسباب التي هي عبادة الله وطاعة مأمور بها، فإن غلط هذا من ترك الأسباب المأمور بها التي هي داخلة في قوله: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾[1]، كغلط الأول في ترك التوكل المأمور به الذي هو داخل في قوله ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾[2]. لكن يقال: من كان توكله على الله ودعاؤه له هو في حصول مباحات فهو من العامة، وإن كان في حصول مستحبات وواجبات، فهو من الخاصة كما أن من دعاه وتوكل عليه في حصول محرمات فهو ظالم لنفسه، ومن أعرض عن التوكل فهو عاص لله ورسوله بل خارج عن حقيقة الإيمان، فكيف يكون هذا المقام للخاصة؟ قال الله تعالى: ﴿**وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين**﴾[3] وقال تعالى: ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده**﴾[4]؟ وقال: ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ [5]، وقال تعالى ﴿**قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله، إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ـ إلى قوله ـ قل حسبي الله، عليه يتوكل المتوكلون**﴾[6] وقد ذكر الله هذه الكلمة (حسبي الله)[7] في جلب المنفعة تارة وفي دفع المضرة أخرى، فالأولى قوله: ﴿**ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله**﴾[8] الآية، والثانية قوله:

---

(١) سورة هود: ١٢٣.
(٢) سورة هود: ١٢٣.
(٣) سورة يونس: ٨٤.
(٤) سورة آل عمران: ١٦٠.
(٥) سورة ابراهيم: ١٢.
(٦) سورة الزمر: ٣٨.
(٧) سورة الزمر: ٣٨.
(٨) سورة التوبة: ٥٩.

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[1] وفي قوله: ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله﴾[2] وقوله: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾[3] الآية يتضمن الأمر بالرضا والتوكل، والرضا والتوكل يكتنفان المقدور، فالتوكل قبل وقوعه والرضاء بعد وقوعه، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الصلاة: «اللهم بعلمك الغيب، وبقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي. اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع. اللهم إني أسألك الرضاء بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك، من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلّلة، اللهم زينا بزينة الايمان، واجعلنا هداة مهتدين»[4] رواه أحمد والنسائي من حديث عمار بن ياسر. وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة للرضا، ولهذا كان طائفة من المشايخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء، فإذا وقع انفسحت عزائمهم، كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره، كما قال تعالى: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾[5] وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون، إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[6] نزلت هذه الآية لما قالوا: لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله آية

---

(١) سورة آل عمران: ١٧٣.
(٢) سورة الأنفال: ٦٢.
(٣) سورة التوبة: ٥٩.
(٤) سنن النسائي: باب السّهو، ومسند الإمام أحمد بن حنبل: ٥، ١٩١.
(٥) سورة آل عمران: ١٤٣.
(٦) سورة الصف: ٣ ـ ٤.

الجهاد فكرهه من كرهه، ولهذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه ما لا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك، أو يطلب ولاية، أو يقدم على بلد فيه طاعون، كما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل» (١)، وثبت عنه في الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك»(٢)، وثبت عنه في الصحيحين أنه قال في الطاعون «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»(٣)، وثبت في الصحيحين أنه قال «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية. ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»(٤) وأمثال ذلك مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء فيبخل بالوفاء، كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهوداً على أمور، وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود.

وينبغي أن الإنسان إذا ابتلى فعليه أن يصبر ويثبت ولا يكل حتى يكون من الرجال الموفين القائمين بالواجبات. ولا بد في جميع ذلك من «الصبر». ولهذا كان الصبر واجباً باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات. ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يخرج، والصبر عن أتباع أهواء النفس فيما نهى الله عنه. وقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعاً، وقرنه بالصلاة في قوله: **﴿واستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾**(٥)، **﴿استعينوا بالصبر**

(١) صحيح مسلم: باب النذر، وسنن الترمذي: النذور، وابن ماجة: كفارات.

(٢) صحيح مسلم: باب الايمان، وسنن الدارمي: باب الامارة.

(٣) صحيح البخاري: باب الطب وصحيح مسلم: السلام.

(٤) صحيح البخاري: باب الجهاد، وصحيح مسلم: الامارة، ومسند أبي داود: الجهاد.

(٥) سورة البقرة: ٤٥.

والصلاة إن الله مع الصابرين﴾[1]، وقوله: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ـ إلى قوله ـ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[2]، ﴿فاصبر على ما يقولون، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾[3]، ﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك﴾[4] الآية، وجعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون﴾[5] فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، فالعمل به لا بد فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر، كما قال معاذ بن جبل: عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح. به يعرف الله ويعبد، به يمجد ويوحد، يرفع الله بالعلم أقواماً يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم وينتهون إلى رأيهم. فجعل البحث عن العلم أقواماً يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم وينتهون إلى رأيهم. فجعل البحث عن العلم من الجهاد ولا بد في الجهاد من الصبر، ولهذا قال تعالى: ﴿والعصر، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[6] وقال تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار﴾[7] فالعلم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد. وضد الأول هو الضلال، وضد الثاني هو الغي، والضلال العمل بغير علم، والغي إتباع الهوى. قال تعالى ﴿والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى﴾[8] فلا

---

(١) سورة البقرة: ١٥٣.
(٢) سورة هود: ١١٥.
(٣) سورة طه: ١٣٠.
(٤) سورة غافر: ٥٥.
(٥) سورة السجدة: ٢٤.
(٦) سورة العصر: ١ ـ ٣.
(٧) سورة ص: ٤٥.
(٨) سورة النجم: ١ ـ ٢.

ينال الهدى إلا بالعلم ولا ينال الرشاد إلا بالصبر، ولهذا قال علي[١]: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له.

وأما «الرضا» فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في «الرضاء بالقضاء» هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين. فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين. قال عمر بن عبد العزيز[٢]: الرضاء عزيز، ولكنه معول المؤمن. وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال لابن عباس: «إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»[٣]. ولهذا لم يجيء في القرآن إلا مدح الراضين لا إيجاب ذلك، وهذا في الرضا فيما يفعله الرب بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلزال كما قال تعالى: **﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾**[٤] وقال: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾**[٥] فالبأساء في الأموال. والضراء في الأبدان، والزلزال في القلوب. وأما «الرضا بما أمر الله به» فأصله واجب، وهو من الإيمان، كما قال النبي ﷺ في الحديث «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً»[٦]، وهو من توابع المحبة كما سنذكره إن شاء الله تعالى. وقال: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً**

---

(١) الإمام علي بن أبي طالب (٢٣ ق هـ - ٤٠) هـ، أبو الحسن، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وابن عمّ النبي وصهره، روى عن النبي ﷺ (٥٨٦) حديثاً.

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم (٦١ - ١٠١) هـ أبو حفص قالوا: هو خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١، ٢٠٧.

(٤) سورة البقرة: ١٧٧.

(٥) سورة البقرة: ٢١٤.

(٦) صحيح مسلم: باب الأيمان.

مما قضيت، ويسلموا تسليما﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله﴾(٢) الآية. وقال تعالى: ﴿﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، فأحبط أعمالهم﴾ (٣) وقال: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ (٤). ومن النوع الأول ما رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «من سعادة ابن آدم استخارته لله، ورضاه بما قسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته لله، وسخطه بما يقسم الله له»(٥)، وأما الرضا بالمنهيات ـ من الكفر والفسوق والعصيان ـ فأكثر العلماء يقولون لا يشرع الرضا بها إذ هي كما لا تشرع محبتها، فإن الله سبحانه لا يرضاها ولا يحبها وإن كان قدرها وقضاها كما قال سبحانه: ﴿والله لا يحب الفساد﴾(٦) وقال تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾(٧) بل يسخطه كما قال تعالى: ﴿ ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، فأحبط أعمالهم﴾(٨).

وقالت طائفة: ترضى من جهة كونها مضافة إلى الله خلقاً، وتسخط من جهة كونها مضافة إلى العبد فعلاً وكسباً. وهذا لا ينافي الذي قبله، بل هما يعودان إلى أصل واحد، وهو سبحانه قدر الأشياء لحكمة، فهي لاعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية، وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة، إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان: يحب من أحدهما، ويكره من الآخر، كما في الحديث الصحيح: «ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن

---

(١) سورة النساء: ٦٥.
(٢) سورة التوبة: ٥٩.
(٣) سورة محمد: ٢٨.
(٤) سورة التوبة: ٥٤.
(٥) سنن الترمذي: باب القدر.
(٦) سورة البقرة: ٢٠٥.
(٧) سورة الزمر: ٧.
(٨) سورة محمد: ٢٨.

قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»[1].

وأما من قال بالرضا بالقضاء الذي هو وصف الله فعله لا بالمقضى الذي هو مفعوله فهو خروج منه عن مقصود الكلام، فإن الكلام ليس بالرضاء فيما يقوم بذات الرب تعالى من صفاته وأفعاله، وإنما الكلام في الرضاء بمفعولاته. والكلام فيما يتعلق بهذا قد بيناه في غير هذا الموضع.

و «الرضاء» وان كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد، حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضاء. ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال، وذلك يتضمن بمقضياته. وفي الحديث «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء»[2]، وروى عن النبي ﷺ أنه «كان إذا أتاه الأمر يسره قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أتاه الأمر الذي يسوؤه قال: الحمد لله على كل حال»[3]، وفي مسند الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال «إذا قبض ولد العبد يقول الله لملائكته: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال؟ فيقولون: حمدك واسترجعك. «فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»[4]، ونبينا ﷺ هو صاحب لواء الحمد[5]، وأمته هم الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء، والرضا والحمد على الضراء يوجبه شاهدان: أحدهما علم العبد بأن الله سبحانه مستوجب لذلك مستحق له لنفسه، فإنه أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل شيء، وهو العليم الحكيم الخبير الرحيم. والثاني علمه بأن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه، كما روى مسلم في صحيحه وغيره عن النبي ﷺ أنه قال

---

(١) صحيح البخاري: باب الرقاق، ومسند الإمام أحمد بن حنبل: ٦، ٢٥٦.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤، ٤٣٤.

(٣) صحيح مسلم: باب الذكر.

(٤) سنن الترمذي: باب الجنائز، ومسند الإمام ابن حنبل: ٤، ٤١٥.

(٥) سنن الترمذي: المناقب، سنن ابن ماجه: الزهد.

«والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»[1] فأخبر النبي ﷺ أنه كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له. قال تعالى: ﴿**إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾[2] وذكرها في أربعة مواضع من كتابه. فأما من لا يصبر على البلاء، ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له. ولهذا أجبت من أورد على هذا بما يقضي على المؤمن من المعاصي بجوابين: أحدهما أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما فعله العبد كما قوله: ﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله - أي من سراء - وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾[3] أي من ضراء. وكقوله: ﴿**وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون**﴾[4] أي بالسراء والضراء كما قال ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**﴾[5] وقال: ﴿**إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها**﴾[6] يراد بها المسار والمضار. ويراد بها الطاعات والمعاصي. والجواب الثاني أن هذا في حق المؤمن الصبار الشكور. والذنوب تنقص الإيمان، فإذا تاب العبد أحبه الله، وقد ترتفع درجته بالتوبة. قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة. فمن قضى له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة، وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «الأعمال بالخواتيم»[7]، والمؤمن إذا فعل سيئة فإن

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الزهد.

(٢) سورة ابراهيم: ٥، وسورة لقمان: ٣١، وسورة سبأ: ١٩، وسورة الشورى: ٣٣.

(٣) سورة النساء: ٧٩.

(٤) سورة الأعراف: ١٦٨.

(٥) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٦) سورة آل عمران: ١٢٠.

(٧) صحيح البخاري: باب القدروباب الرّقاق.

عقوبته تندفع عنه بعشرة أسباب: أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. أو يستغفر فيغفر له. أو يعمل حسنات تمحوها، فإن الحسنات يذهبن السيئات. أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حياً وميتاً. أو يهدون له من ثواب أعمالهم لينفعه الله به. أو يشفع فيه نبيه محمد ﷺ، أو يبتليه (الله) في الدنيا بمصائب تكفر عنه. أو يبتليه في البرزخ والصعقة فيكفر بها عنه، أو يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه. أو يرحمه أرحم الرحمين. فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه، كما قال تعالى فيما يروي عنه رسوله «يا عبادي، إنما هي أعمالك أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»(١)، فإن كان المؤمن يعلم أن القضاء خير إذا كان صابراً شكوراً، وكان قد استخار الله وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم له، كان قد رضي بما هو خير له. وفي الحديث الصحيح عن علي قال «إن الله يقضي بالقضاء فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»(٢)، ففي هذا الحديث الرضا والاستخارة، فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء، وهذا أكمل من الرضا والصبر، فلهذا ذكر في ذاك الرضا وفي هذا الصبر. ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيراً له فكيف مع الرضا، ولهذا جاء في الحديث «المصاب من حرم الثواب» فالأثر الذي رواه الشافعي في مسنده»(٣) أن النبي ﷺ لما مات سمعوا قائلاً يقول: يا آل بيت رسول الله، إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل فائت، فبالله فثقوا وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب». ولهذا لم نؤمر بالحزن المنافي للرضا قط،

---

(١) صحيح مسلم: باب تحريم الظلم.

(٢) سنن الترمذي: باب الزهد، وسنن ابن ماجة: باب الفتن.

(٣) الإمام محمد بن ادريس الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤) هـ أبو عبد الله، حدّث عن مالك بن أنس، وسفيان بن عُيَيْنة، وأخذ الفقه عن مسلم بن خالد الزنجي وله من الكتب: الرسالة، والأم والمبسوط وهذا الكتاب هو الذي ظنّ بعض العلماء أنّه للشافعي مسنداً مستقلاً في الحديث، والحقيقة أن المسند هو المبسوط نفسه.

مع أنه لا فائدة فيه فقد يكون مضرة، لكنه يعفي عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله، لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، وذلك لا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه، وبهذا تعرف معنى قول النبي ﷺ لما بكى على الميت وقال «إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1] وأن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت، وأن الفضيل بن عياض[2] لما مات ابنه علي فضحك وقال: رأيت أن الله قضى، فأحببت أن أرضي بما قضى الله به حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع. وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله كحال النبي ﷺ فهذا أكمل. قال تعالى مع الرضا بالقضاء وحمد الله كحال النبي ﷺ فهذا أكمل. قال تعالى: ﴿ثم **كان من الذين آمنوا، وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالمرحمة**﴾[3] فذكر سبحانه التواصي بالصبر والرحمة.

والناس أربعة أقسام: منهم من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس. وقد فطن طائفة من المصنفين في هذا الباب أن الرضا عن الله من توابع المحبة له، وهذا إنما يتوجه على المأخذ الأول وهو الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه مع قطع العبد النظر عن حظه، بخلاف المأخذ الثاني وهو الرضا لعلمه بأن المقضى خير له. ثم إن المحبة متعلقة به والرضا متعلق بقضائه لكن قد يقال في تقرير ما قال هذا المصنف ونحوه إن المحبة لله نوعان: محبة له نفسه، ومحبة لما منهم من الإحسان. وكذلك الحمد له نوعان: حمد له على ما يستحقه بنفسه، وحمد على إحسانه لعبده، فالنوعان للرضا كالنوعين

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، صحيح مسلم: كتاب الجنائز.

(٢) الفُضيل بن عِياض بن مسعود التميمي اليربوعي (١٠٥ ـ ١٨٧) هـ أبو علي: شيخ الحرم المكيّ، كان ثقةً في الحديث، أخذ عنه الإمام الشافعي.

(٣) سورة البلد: ١٧.

للمحبة. وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة، ولهذا ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً»[١]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار»[٢]، وهذا مما يبين من الكلام على المحبة فنقول:

فصل

محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين، فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة: إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة كما قد بسطنا لك في قاعدة المحبة، من (القواعد الكبار). فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك»[٣]. وثبت في الصحيح حديث الثلاثة الذين

---

(١) صحيح مسلم: باب الإيمان.

(٢) صحيح مسلم: باب الإيمان، وصحيح الخباري: الإيمان.

(٣) صحيح مسلم: باب الزهد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: أنا غني الشّركاء عن الشّرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتهُ وشركه.

هم «أول من تسعر بهم النار: القارىء المرائي، والمجاهد المرائي، والمتصدق المرائي»[1] بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، فهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، قال تعالى: ﴿**تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم**﴾[2]، ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين، ألا لله الدين الخالص**﴾[3] والسورة كلها عامتها في هذا المعنى من قوله: ﴿**قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين، وأمرت لأن أكون أول المسلمين**﴾[4] إلى قوله: ﴿**قل الله أعبد مخلصاً له ديني - إلى قوله - أليس الله بكاف عبده؟ ويخوفونك بالذين من دونه - إلى قوله - قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هو كاشفات ضره**﴾[5] الآية، إلى قوله: ﴿**أم اتخذوا من دون الله شفعاء، قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟ قل لله الشفاعة جميعاً، له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون. وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون**[6]**- إلى قوله - قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون**[7]**- إلى قوله - بل الله فاعبد وكن من الشاكرين**﴾[8] وقال تعالى فيما قصه من قصة آدم وأبليس أنه قال: ﴿**فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين**﴾[9] وقال تعالى:

---

(١) سنن الترمذي: كتاب الزهد.
(٢) سورة الزمر: ١، وسورة غافر: ١، وسورة الجاثية: ١، وسورة الأحقاف: ١.
(٣) سورة الزمر: ٢ - ٣.
(٤) سورة الزمر: ١١.
(٥) سورة الزّمر: ٣٦ - ٣٨.
(٦) سورة الزمر: ٤٣ - ٤٥.
(٧) سورة الزمر: ٤٥ - ٦٤.
(٨) سورة الزمر: ٦٤ - ٦٦.
(٩) سورة ص: ٨٢.

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾[1] وقال: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾[2] فبين أن سلطان الشيطان وإغواءه إنما هو لغير المخلصين، ولهذا قال في قصة: ﴿وكذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾[3]. وأتباع الشيطان هم أصحاب النار كما قال تعالى: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾[4]، وقد قال سبحانه: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[5]، وهذه الآية في حق من لم يتب، ولهذا خصص الشرك وقيل ما سواه بالمشيئة، فإنه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه، وما دونه يغفره لمن يشاء، وأما قوله: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[6] فتلك في حق التائبين، ولهذا عمم وأطلق، وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها، وقد أخبر سبحانه أن الأولين والآخرين إنما أمروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي ﷺ لما أمره أن يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءتهم البينة، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾[7] الآية، وهذا حقيقة قول «لا إله إلا الله» وبذلك بعث جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[8] وقال: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا

---

(١) سورة الحجر: ٤٢.
(٢) سورة النحل: ٩٩.
(٣) سورة يوسف: ٢٤.
(٤) سورة ص: ٨٥.
(٥) سورة النساء: ٤٨ و ١١٦.
(٦) سورة الزمر: ٥٣.
(٧) سورة البيّنة: ٤.
(٨) سورة الأنبياء: ٢٥.

من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾[1] ؟ وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[2] وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل، كما قال نوح عليه السلام: ﴿اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ [3] وكذلك هود وصالح، وشعيب[4] عليهم السلام وغيرهم، كل يقول: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾[5] لا سيما أفضلا الرسل اللذين اتخذ الله كلاهما خليلاً إبراهيم ومحمداً عليهما السلام، فإن هذا الأصل بينه الله بهما، وأيدهما فيه، ونشره بهما. فإبراهيم هو الإمام الذي قال الله فيه: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾[6] وفي ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل، فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم، قال سبحانه: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾[7] فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله، وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا كما قال صاحب يس: ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون، أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون﴾[8]، وقال تعالى في قصته بعد أن ذكر ما يبين ضلال من اتخذ بعض الكواكب رباً يعبده من دون الله قال: ﴿فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين - إلى قوله - ولا

(١) سورة الزخرف: ٤٥.
(٢) سورة النحل: ٣٦.
(٣) سورة الأعراف: ٥٩.
(٤) سورة هود: ٥٠ و٦١ و٨٤.
(٥) سورة هود: ٥٠ و٦١ و٨٤.
(٦) سورة البقرة: ١٢٤.
(٧) سورة الزخرف: ٢٦.
(٨) سورة يس: ٢٢.

تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾(1) وقال إبراهيم الخليل عليه السلام: **﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين، الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين﴾**(2) وقوله تعالى: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾**(3) الآية، ونبينا ﷺ هو الذي أقام الله به الدين الخالص لله دين التوحيد، وقمع به المشركين: من كان مشركاً في الأصل ومن الذين كفروا من أهل الكتب، وقال ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وغيره «بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»(4) وقد تقدم بعض ما أنزل الله عليه من الآيات المتضمنة للتوحيد فقال تعالى: **﴿والصافات صفا ـ إلى قوله ـ إن إلهكم لواحد﴾**(5) إلى قوله: **﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون، ويقولون أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون، بل جاء بالحق وصدق المرسلين**(6) **ـ إلى قوله ـ أولئك لهم رزق معلوم، فواكه وهم مكرمون﴾**(7) إلى ما ذكره من قصص الأنبياء في التوحيد وإخلاص الدين لله، إلى قوله: **﴿سبحان الله عما يصفون، إلا عباد الله المخلصين﴾**(8) وقال تعالى: **﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم**

---

(1) سورة الأنعام: ٧٨ ـ ٨١.

(2) سورة الشعراء: ٧٥.

(3) سورة الممتحنة: ٤.

(4) صحيح البخاري: باب الجهاد: عن ابن عمر عن النبي ﷺ: جُعل رزقي تحت ظلّ رُمحي وجُعل الذِّلةُ والصَّغارُ على مَنْ خالف أمري». ومسند ابن حنبل: ٣، ٥٠.

(5) سورة الصَّفات: ١ ـ ٤).

(6) سورة الصافات: ٣٥ ـ ٣٧.

(7) سورة الصافات: ٤١ ـ ٤٢.

(8) سورة الصافات: ١٦٠.

نصيراً إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾[1] وفي الجملة فهذا الأصل في سورة الأنعام والأعراف والنور وطسم وحم وسور المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين حتى في سورتي الإخلاص: **﴿قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد﴾**[2] وهاتان السورتان كان النبي ﷺ يقرأ بهما في صلاة التطوع كركعتي الطواف وسنة الفجر[3]، وهما متضمنتان للتوحيد؛ فأما **﴿قل يا أيها الكافرون﴾**[4] فهي متضمنة للتوحيد العملي الإرادي وهو إخلاص الدين لله بالقصد والإرادة، وهو الذي يتكلم به مشايخ التصوف غالباً، وأما سورة **﴿قل هو الله أحد﴾**[5] فمتضمنة للتوحيد القولي العملي كما ثبت في الصحيحين عن عائشة «أن رجلاً كان يقرأ **﴿قل هو الله أحد﴾** في صلاته، فقال النبي ﷺ: سلوه لم يفعل ذلك؟ فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحبها، فقال: أخبروه أن الله يحبه»[6] ولهذا تضمنت هذه السورة من وصف الله سبحانه وتعالى الذي ينفي قول أهل التعطيل وقول أهل التمثيل ما صارت به هي الأصل المعتمد في مسائل الذات، كما قد بسطنا ذلك في غير هذا الموضع، وذكرنا اعتماد الأئمة عليها مع ما تضمنته في تفسير «الأحد» كما جاء تفسيره عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين وما دل على ذلك من الدلائل. لكن المقصود هنا هو التوحيد العملي وهو إخلاص الدين لله، وإن كان أحد النوعين مرتبطاً بالآخر فلا يوجد أحد من أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة إلا

---

(١) سورة النساء: ١٤٥.

(٢) سورة الكافرون: ١، وسورة الاخلاص: ١.

(٣) صحيح مسلم: باب الصلاة: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد».
وصحيح البخاري: باب الصلاة.

(٤) سورة الكافرون: ١.

(٥) سورة الاخلاص: ١.

(٦) صحيح مسلم. كتاب الصلاة، وصحيح البخاري: كتاب الصلاة.

وفيه نوع من الشرك العملي، إذ أصل قولهم فيه شرك وتسوية بين الله وبين خلقه، أو بينه وبين المعدومات كما يسوي المعطلة بينه وبين المعدومات في الصفات السلبية التي لا تستلزم مدحاً ولا ثبوت كمال، أو يسوون بينه وبين الناقص من الموجودات في صفات النقص، وكما يسوون إذا أثبتوا هم ومن ضاهاهم من الممثلة مساواة بينه وبين المخلوقات في حقائقها حتى قد يعبدونها فيعدلون بربهم ويجعلون له أنداداً ويشبهون المخلوق برب العالمين. واليهود كثيراً ما يعدلون الخالق بالمخلوق ويمثلونه به حتى يصفوا الله بالعجز والفقر والبخل ونحو ذلك من النقائص التي يجب تنزيهه عنها وهي من صفات خلقه، والنصارى يعدلون المخلوق بالخالق حتى يجعلوا في المخلوق من نعوت الربوبية وصفات الإلهية ويجوزون له ما لا يصلح إلا للخالق، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، والله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نسأله الهداية بقوله ﴿**اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾[1] وقد قال النبي ﷺ «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»[2]، وفي هذه الأمة من هؤلاء وهؤلاء كما قال النبي ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن»[3]؟ والحديث في الصحيحين.

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله وحده، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته وهذا كمال المحبة، لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا**

---

(١) سورة الفاتحة: ٤ ـ ٧.

(٢) سنن الترمذي: التفسير، ومسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٧٨.

(٣) صحيح البخاري: باب الاعتصام. عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لتتبعُنَّ سُنَنَ مَن قبلكُم شبراً شبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ تبعتُمُوهم، قلنا يا رسول الله اليهودُ والنصارى، قال: فمن».

وصحيح مسلم: باب العلم، وسنن ابن ماجة: باب الفتن.

ليعبدون﴾[1] وقوله: **﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾**[2] وأمثال هذا، والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبوداً، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبوداً، ولهذا قال تعالى: **﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حباً لله﴾**[3] فبين سبحانه أن المشركين الذين يتخذون من دون الله أنداداً وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله فالذين آمنوا أشد حباً لله منهم لله ولأوثانهم، لأن المؤمنين أعلم بالله، والحب يتبع العلم، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده، وأولئك جعلوا بعض حبهم له وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب، ومعلوم أن ذلك أفضل، قال الله تعالى: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون، ورجلاً مسلماً لرجل، هل يستويان مثلاً﴾**[4]؟ الآية. واسم «المحبة» فيه إطلاق وعموم، فإن المؤمن يحب الله ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين، وإن كان ذلك من محبة الله، وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره، فلهذا جاءت محبة الله مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والإنابة إليه والتبتل له ونحو ذلك، فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالى. ثم إنه كما بين أن محبته أصل الدين فقد بين أن كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها، فإن النبي ﷺ قال «رأس الأمر الإسلام؛ وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»[5] فأخبر أن الجهاد ذروة سنام العمل وهو أعلاه وأشرفه، وقد قال تعالى: **﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ لا يستوون عند الله - إلى قوله - أجر عظيم﴾**[6]، والنصوص

(١) سورة الذاريات: ٥٦.
(٢) سورة البقرة: ٢١.
(٣) سورة البقرة: ١٥٦.
(٤) سورة الزّمر: ٢٩.
(٥) سنن الترمذي: باب الايمان.
(٦) سورة التوبة: ١٩ ـ ٢٢.

في فضائل الجهاد وأهله كثيرة، وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد. والجهاددليل المحبة الكاملة، قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم﴾[1] الآية. وقال تعالى في صفة المحبين المحبوبين: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾[2] فإن المحبة مستلزمة للجهاد، ولأن المحب يحب ما يحب محبوبه ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يوالي محبوبه ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به وينهي عما ينهي عنه، فهو موافق في ذلك، وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ هم إنما يرضون لرضاه ويغضبون لما يغضب له، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر في طائفة فيهم صهيب[3] وبلال[4]: «لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك. فقال لهم: يا إخوتي هل أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أبا بكر»[5] وكان قد مر بهم أبو سفيان بن حرب فقالوا: ما أخذت السيوف مأخذها، فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لسيد قريش؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي ﷺ فقال له ما تقدم، لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضباً لله لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله والمعاداة لأعدائهما، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح فيما يروي عن ربه: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

(٢) سورة المائدة: ٥٤.

(٣) صُهَيْب بن سنان بن مالك (٣٢ ق هـ ـ ٣٨ هـ) صحابي وأحد السابقين إلى الإسلام، ومن أرمى العرب سهماً وله: (٣٠٧) أحاديث توفي في المدينة المنوّرة.

(٤) بلال بن رباح الحبشي (٠٠ ـ ٢٠ هـ) أبو عبد الله مؤذن رسول الله ﷺ وخازنه على بيت ماله وأحد السابقين للإسلام، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، روى له البخاري ومسلم ٤٤ حديثاً.

(٥) صحيح مسلم: باب فضائل الصحابة، ومسند الإمام ابن حنبل: ٥، ٦٤.

يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه»[1] فبين أنه يتردد لأن التردد تعارض إرادتين، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه كما قال «وأنا أكره مساءته» وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن يموت فسمي ذلك تردداً، ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك، وهذا اتحاد في المحبوب المرضي المأمور به والمبغض المكروه المنهي عنه، وقد يقال له اتحاد نوعي وصفي، وليس ذلك اتحاد الذاتين فإن ذلك ممتنع، والقائل به كافر، وهو قول النصارى والغالية من الرافضة والنساك كالحلاجية[2] ونحوهم، وهو الاتحاد المقيد في شيء بعينه. وأما الاتحاد المطلق الذي هو قول أهل وحدة الوجود[3] الذين يزعمون أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق فهذا تعطيل للصانع وجحود له، وهو جامع لكل شرك، فكما أن الاتحاد نوعان فكذلك الحلول نوعان: قوم يقولون بالحلول المقيد في بعض الأشخاص، وقوم يقولون بحلوله في كل شيء وهم الجهمية الذين يقولون إن ذات الله في كل مكان. وقد يقع لبعض المصطلمين من أهل الفناء في المحبة[4] أنه يغيب بمحبوبه عن نفسه وحبه ويغيب بمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته وبموجوده عن وجوده حتى

---

(١) صحيح البخاري: باب الرقاق.

(٢) الحلاجية نسبة إلى الحسين بن منصور الحلاج أبو مغيث (ت ٣٠٩) هـ الذي يدّعي حلول الألوهية فيه، وقد أمر الخليفة العباسي بسجنه وضربه ثمّ حزّ رأسه وألقيت جثته في نهر دجلة.

(٣) وحدة الوجود: يقرر أصحاب هذه الفرقة من الغلاة أن الحقيقة الوجودية واحدة، وأنّ العالم مظاهر وتعيينات للحق، وأن العالم وجهان لحقيقة هي: الحق والخلق وقد اعتنق هذه الآراء: عبد الكريم الجيلاني أو الجيلي (ت ٨٣٢) هـ والشيخ محيي الدين بن عربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨) هـ والحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩) هـ.

(٤) الفناء: وهو حال يفقد فيها الصوفي حسّهُ، فيفنى الإنسانُ ويبقى الله، ويرتفع الفرق بين العارف والمعروف، والعاقل والمعقول، ويصبحُ الوجودُ وحده. والفناء مرحلة يدعيها أصحابُ وحدة الوجود والحلول.

لا يشهد إلا محبوبه فيظن - في زوال تمييزه، ونقص عقله، وسكره - أنه هو محبوبه، كما قيل إن محبوباً وقع في اليم فألقى المحب نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت، فأنت ما الذي أوقعك؟ فقال: غبت بك عني فظننت أنك أنا. فلا ريب أن هذا خطأ وضلال، لكن إن كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير أن يحصل عن سبب محظور زال به عقله وكان معذوراً في زواله، فلا يكون مؤاخذاً بما يصدر منه من الكلام في هذه الحال التي زال فيها عقله بغير سبب محظور، كما قيل في عقلاء المجانين أنهم قوم آتاهم الله عقولاً وأحوالاً، فسلب عقولهم وأبقى أحوالهم، وأسقط ما فرض بما سلب. وأما إذا كان السبب الذي به زوال العقل محظوراً لم يكن السكران معذوراً، وإن كان لا يحكم بكفره في أصح القولين، كما لا يقع طلاقه في أصح القولين؛ وإن كان النزاع فيه مشهوراً. وقد بسطنا الكلام في هذا وفيمن يسلم له حاله ومن لا يسلم في قاعدة ذلك. وبكل حال فالفناء الذي يفضي بصاحبه إلى مثل هذا حال ناقص وإن كان صاحبه غير مكلف، ولهذا لم يرد مثل هذا عن الصحابة الذين هم أفضل الأمة، ولا عن نبينا محمد ﷺ، وإن كان لهؤلاء في صعق موسى نوع تعلق. وإنما حدث زوال العقل عند الواردات الإلهية على بعض التابعين ومن بعدهم، وإن كانت المحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه، وولايته وعداوته، فمن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى: ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص**﴾[1].

والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة كما قد أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود، وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه فإن الملام على ذلك كثير، وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق، وليس من ذلك المحمود الصبر على هذا

---

(١) سورة الصف: ٤.

الملام، بل الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك.

فصل

وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب، قال تعالى: ﴿**أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه**﴾[1] الآية. وقال: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله**﴾[2] ورحمته اسم جامع لكل خير، وعذابه اسم لكل شر، ودار الرحمة الخالصة هي الجنة، ودار العذاب الخالص هي النار، وأما الدنيا فدار استدارج. فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة فالجنة اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلى وجه الله كما في صحيح مسلم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي ﷺ قال «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موحداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ألم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»[3] وهو «الزيادة»، ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك ولا خوفاً من نارك، وإنما عبدتك شوقاً إلى رؤيتك. فإن هذا القائل ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس

---

(١) سورة الاسراء: ٥٧.

(٢) سورة البقرة: ٢١٨.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الأيمان.

والنكاح والسماع ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات كما يوافق على ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية أو من يقر بها ويزعم أنه لا تمتع في نفس رؤية الله كما يقوله طائفة من المتفقهة، فهؤلاء متفقون على أن مسمى الجنة والآخرة لا يدخل فيه إلا التمتع بالمخلوقات، ولهذا قال بعض من غلط من المشايخ لما سمع قوله: ﴿**منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة**﴾(١) قال: فأين من يريد الله؟ وقال آخر: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾(٢) قال: إذا كانت النفوس والأموال بالجنة فأين النظر إليه؟ وكل هذا لظنهم أن الجنة لا يدخل فيها النظر، والتحقيق أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلى ما فيها النظر إلى وجه الله، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة كما أخبرت به النصوص وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم يدخلون النار، مع أن قائل هذا القول إذا كان عارفاً بما يقول فإنما قصده: إنك لو لم تخلق ناراً ولو لم تخلق جنة لكان يجب أن تعبد، ويجب التقرب إليك والنظر إليك، كما قال عمر رضي الله عنه «نعم العبد صهيب، أو لم يخف الله لم يعصه»، أي هو لم يعصه ولو لم يخفه، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته، والراجي الخائف إذا تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب باحتجاب الرب عنه والتنعيم بتجليه فمعلوم أن هذا من توابع محبته له، فالمحبة هي أوجبت محبة التجلي والخوف من الاحتجاب وإن تعلق خوفه ورجاؤه بالتعذب بمخلوق والتنعم به فهذا إنما يطلب ذلك بعبادة الله المستلزمة محبته لله وهي أحلى من كل محبة، ولهذا يكون اشتغال أهل الجنة بذلك أعظم من كل شيء كما في الحديث «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما تلهمون»(٣) وهو يبين غاية تنعمهم بذكر الله ومحبته. فالخوف من التعذب بمخلوق والرجاء له يسوقه إلى محبة الله التي هي الأصل،

(١) سورة آل عمران: ١٥٢.

(٢) سورة التوبة: ١١١.

(٣) صحيح مسلم: باب الجنة.

وهـذا كله ينبني على أصل المحبـة فيقال: قـد نطق الكتـاب والسنـة بمحبـة العباد المؤمنين لله كما في قـوله: ﴿**والـذين آمنوا أشـد حباً لله**﴾[1]، وقـوله: ﴿**يحبهم ويحبـونه**﴾[2]، وقـوله: ﴿**أحب إليكم من الله ورسـولـه وجهـاد في سبيله**﴾[3] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ثـلاث من كن فيه وجـد حـلاوة الإيمان: أن يكـون الله ورسولـه أحب إليه ممـا سـواهمـا، وأن يحب المـرء لا يحبه إلا الله، وأن يكـره أن يرجـع في الكفر بعـد إذ أنقذه الله منـه كمـا يكره أن يلقى في النـار»[4] بل محبـة رسـول الله ﷺ وجبت لمحبـة الله كمـا في قولـه: ﴿**أحب إليكم من الله ورسولـه**﴾[5] وكما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنـه قال: «والـذي نفسي بيده، لا يؤمن أحـدكم حتى أكـون أحب إليـه من ولده ووالـده والنـاس أجمعين[6]»وفي صحيـح البخـاري عن عمـر بن الخطاب أنه قـال: «والله يا رسـول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء، إلا من نفسي، فقـال: لا يا عمـر، حتى أكون أحب إليـك من نفسك. فقـال: والله لأنت أحب إلي من نفسي»[7] وكـذلـك محبـة صحـابتـه وقـرابتـه كمـا في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قـال «آية الإيمـان حب الأنصار وآيـة النفاق بغض الأنصار»[8] وقال «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بـالله واليوم الآخـر»[9] وقال علي رضي الله عنـه «إنه لعهـد النبي الأمي إلى أنـه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منـافق»[10]، وفي السنن أنه قـال للعباس «والـذي نفسي بيـده،

---

(١) سورة البقرة: ١٦٥.
(٢) سورة المائدة: ٥٤.
(٣) سورة التوبة: ٢٤.
(٤) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، صحيح مسلم: كتاب الايمان.
(٥) سورة التوبة: ٢٤.
(٦) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان.
(٧) صحيح البخاري: الفضائل.
(٨) صحيح البخاري: باب الإيمان، وصحيح مسلم: باب الإيمان.
(٩) صحيح مسلم: باب الإيمان.
(١٠) سنن النسائي: الإيمان، وصحيح مسلم: الإيمان.

لا يدخلون الجنة حتى يحبونكم لله ولقرابتي[1] يعني بني هاشم. وقد روى حديث عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لأجلي».

وأما محبة الرب لعبده فقال تعالى: ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلاً**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**يحبهم ويحبونه**﴾[3] وقال: ﴿**وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين**﴾[4]، ﴿**وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾[5]، ﴿**فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين**﴾[6]، ﴿**فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين**﴾[7]، ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص**﴾[8]، ﴿**بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين**﴾[9].

وأما الأعمال التي يحبها الله من الواجبات والمستحبات الظاهرة والباطنة فكثيرة معروفة، وكذلك حبه لأهلها وهم المؤمنون أولياء الله المتقون. وهذه المحبة حق كما نطق بها الكتاب والسنة والذي عليه سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وجميع مشايخ الدين وأئمة التصوف أن الله محبوب لذاته محبة حقيقة، بل هي أكمل محبة، فإنها كما قال تعالى: ﴿**والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾[10]، وكذلك هو سبحانه يحب ما يحب عباده

---

(١) سنن ابن ماجة) المقدمة. عن العباس بن عبد المطلب قال: كنا نلقى النَّفر من قريش وهم يتحدّثون فيقطعون حديثهم، فذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ما بالُ أقوامٍ يتحدّثون، فإذا رأوا الرّجل من أهل بيتي قطعوا حديثهم. والله لا يدخُلُ قلبَ رجلٍ الإيمانُ حتى يحبَّهُم لله ولقرابتهم مني».

(٢) سورة النساء: ١٢٥.

(٣) سورة المائدة: ٥٤.

(٤) سورة البقرة: ١٩٥.

(٥) سورة الحجرات: ٩.

(٦) سورة التوبة: ٤.

(٧) سورة التوبة: ٧.

(٨) سورة الصف: ٤.

(٩) سورة آل عمران: ٧٦.

(١٠) سورة البقرة: ١٦٥.

المؤمنون وما هو في الله محبة حقيقية. وأنكر الجهمية حقيقة المحبة من الطرفين زعماً منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب محبته، وقاسوا به المحبة. وكان أول من أحدث هذا في الإسلام الجعد بن درهم[١] في أوائل المائة الثانية، فضحى به خالد بن عبد الله القسري[٢] أمير العراق والمشرق بواسط، خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس: ضحوا يقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليما. ثم نزل فذبحه، فكأنه قد أخذ هذا المذهب عنه الجهم بن صفوان[٣] فأظهره عليه وإليه أضيف قول الجهمية، فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها، ثم نقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد[٤]، وأظهر قولهم في زمن الخليفة المأمون[٥]، حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوا إلى الموافقة لهم عن ذلك. وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة[٦] من البراهمة[٧] والمتفلسفة

الجعد بن درهم (٠٠٠ ـ نحو ١١٨ هـ)، من الموالي: مبتدع، وله أخبار في الزندقة، وقال الذهبي: هو مبتدع ضال، زعم أنّ الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً، ولم يكلّم موسى، ومات قتلاً في العراق على يد خالد القسري.

(٢) خالد بن عبد الله القسري (٦٦ ـ ١٢٦) هـ أبو الهيثم، أمير العراقين، وأحدُ خطباء العرب وأجوادهم، عزلهُ هشام وحبسُه ثمّ قتلهُ الوليد بن يزيد.

(٣) جهم بن صفوان (. . . ـ ١٢٨) هـ أبو محرز من الموالي قال عنهُ الذهبي: هو رأسُ الجهميّة، الضّال المبدع، هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً.

(٤) عمرو بن عُبيد بن باب التميمي (٨٠ ـ ١٤٤) هـ بالولاء: أبو عثمان البصري، رئيس المعتزلة، في عصره، اشتهر بعلمه، ويراهُ بعضُ العلماء مبتدعاً.

(٥) المأمون هو عبد الله بن هارون الرشيد (١٧٠ ـ ٢١٨) أبو العباس، وسابع خلفاء بني العباس، أطلق حريّة الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة، وفي عهده كانت محنةُ خلق القرآن.

(٦) الصابئة: صبأ الرجل إذا مالَ وزاغَ، ولميل هؤلاء عن سنن الحق، وزيغهم عن نهج الأنبياء، قيل لهم: الصابئة.

(٧) البراهمة: هذا المذهب جاء من الهند يؤمن أتباعه بالتناسخ أي بانتقال النفس من جسدٍ إلى جسدٍ ويؤمن بالتجسيد والتجسّد، ويظهرون الزهد وأن النفسّ الكلية موجودة في كلّ كائن.

ومبتدعة أهل الكتاب الذين يزعمون أن الرب ليس لـه صفات ثبـوتية أصـلاً، وهؤلاء هم أعـداء إبـراهيم الخليـل عليـه السـلام، وهم يعبـدون الكـواكب ويبنـون الهياكـل للعقول والنجـوم وغيـرهمـا، وهم ينكـرون في الحقيقـة أن يكون إبراهيم خليـلاً وموسى كليمـا وأن الخلة هي كمال المحبـة المستغرقـة للحب كما قيل:

قـد تخللت مسلك الـروح مني   وبـذا سمي الخليـل خليـلا[١]

ويشهـد لهـذا مـا ثبت في الصحيـح عن أبي سعيـد عن النبي ﷺ أنـه قال «لو كنت متخـذاً من أهل الأرض خليـلاً لاتخذت أبـا بكر خليـلاً، ولكن صـاحبكم خليل الله»[٢] يعني نفسـه. وفي رواية «إني أبـرأ إلى كـل خليـل من خلتـه، ولـو كنت متخـذاًمن أهـل الأرض خليـلاً لاتخـذت أبـا بكـر خليلاً»[٣] وفي رواية «إن اللهّ اتخذني خليلاً كمـا اتخذ إبـراهيم خليلاً»[٤] فبين ﷺ أنـه لا يصلح له أن يتخـذ من المخلوقين خليلاً وأنـه لو يكـون ذلك لكان أحق الناس بها أبو بكر الصديق رضي الله عنـه، مع أنـه ﷺ قد وصف نفسه بأنـه يحب أشخاصـاً كما قـال لمعاذ «والله إني لأحبـك» وكذلـك قولـه لـلأنصار[٥]، وكـان زيد بن حـارثـة[٦] حب رسـول الله ﷺ[٧] وكـذلـك ابنـه

---

(١) ورد هذا البيت كشاهد شعري في كتاب فصوص الحكم لابن عربي.

(٢) صحيـح البخاري: بـاب فضائـل الصحابـة: لو كنتُ متخـذاً خليلاً غيـر ربي لاتخّـذت أبـا بكرٍ، ولكنْ أخي وصاحبي، وفي رواية: ولكنّ أخوة الإسلام أفضل.
وصحيح مسلم: باب فضائل الصحابة.

(٣) صحيح مسلم: باب فضائل الصحـابة: ألا إني أبـرأُ إلى كلِّ خـلٍّ من خلّهِ ولو كنتُ متخـذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، أنّ صاحبكم خليل الله.
ومسند الإمام أحمد بن حنبل: ١، ٢٧٧، ٢٨٩.

(٤) سنن ابن ماجة: المقدمة.

(٥) صحيح البخاري: فضـائل الصحـابة: عن البـراء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: الأنصار لا يحبّهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منـافق، فمن أحبَّهم أحبَّـه اللّهُ، ومَنْ أبغضهُم أبغضـهُ اللّهُ». وعن أنس «أنتم أحبُّ الناسِ إليّ قالها ثلاث مرات».

(٦) زيد بن حارثة (٧٧٧ - ٨) هـ الكلبي، صحابي، اشترته خـديجة بنت خـويلد صغيراً ووهبتـه إلى النبي ﷺ حين تـزوجهـا وتبنـاه النبيُ قبـل الإسـلام وأعتقـه، وزوّجـه بنت عمتـه، وقـد استشهد في غزوة مؤتة.

(٧) صحيح البخاري: باب مناقب الصحابة.

أسـامة حبـه[1] وأمثال ذلـك. وقال لـه عمرو بن العـاص[2] «أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة. قال: فمن الرجال؟ قال: أبـوها». وقـال لفاطمـة رضي الله عنها «ألا تحبين ما أحب؟ قـالت: بلى. قال: فـأحبي عائشـة»[3]، وقال للحسن «اللهم إني أحبـه فأحبـه من يحبه»[4]. وأمثـال هـذا كثيـر، فـوصف نفسه بمحبة الأشخاص، وقال «إني أبـرأ إلى كل خليـل من خلته، ولـو كنت متخـذاً من أهـل الأرض خليـلاً لاتخـذت أبـا بكـر خليـلاً» فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة بحيث هي من كمـالها، وتخللهـا الحب حتى يكون المحبـوب بها محبـوباً لـذاتـه لا لشيء آخـر، إذ المحبـوب لشيء غيـره هـو مؤخـر في المحبة عن ذلـك الغير ومن كمـالها لا تقبـل الشركـة والمـزاحمـة لتخللهـا الحب، ففيها كمـال لتوحيـد وكمال الحب. وإن الخلة أيضـاً تنافي المزاحمة وتقدم الغير بحيث يكـون المحبوب محبـوباً لـذاته لا يـزاحمه فيهـا غيره، وهذه محبة لا تصلح إلا الله فلا يجـوز أن يشركـه غيره فيمـا يستحقه، وهـو محبوب لـذاته وكـل ما يحب غيـره إذا كان محبـوبـاً بحق فـإنمـا يحب لأجله، وكـل ما أحب لغيـره فمحبته بـاطلة في الـدنيـا، (والـدنيـا) ملعـونـة ملعون ما فيها إلا ما كان لله تعالى.

فـإذا كـانت الخلة كـذلـك فمن المعلوم أن من أنكـر أن يكـون الله محبوباً لـذاته ينكـر مخاللتـه. وكذلـك أيضاً إن أنكـر محبته لأحـد من عباده فقـد أنكر أن يتخـذه خليلاً بحيث يحب الـرب ويحبـه العبـد على أكمـل مـا يصلح للعبـادة. وكذلـك تكليمه لمـوسى أنكروه لإنكـارهم أن يقوم بـه صفة

---

(١) أسـامة بن زيـد بن حارثـة (٧ ق هـ ـ ٥٤ هـ) صحابي جليـل وكان رسـول الله يحبّـهُ كثيـراً، وهاجر مع النبي إلى المدينـة، وله في كتب الحـديث: ١٢٨ حديثـاً وفي صحيح البخـاري: بـاب فضائـل أصحاب النبي، عن عـائشة أنّ قـريشـاً أهمّهم شـأن المخـزومية فقـالـوا: من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حبُّ رسول الله ﷺ.

(٢) عمـرو بن العاص بن وائـل السهمي القرشي (٥٠ ق هـ ـ ٤٣ هـ) أبـو عبـد الله فـاتـحُ مصر ولاّه النبي ﷺ أمرة جيش ذات السّلاسل.

(٣) صحيح مسلم: باب فضائل أصحاب النبي.

(٤) صحيح البخاري: باب فضائل الصحابة.

من الصفات أو فعل من الأفعال، فكما ينكرون أن يتصف بحياة أو قدرة أو علم، أو أن يستوي أو أن يجيء، فكذلك ينكرون أن يتكلم أو يكلم، فهذا حقيقة قولهم: ﴿**كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم**﴾[٨]. لكن لما كان الإسلام ظاهراً والقرآن متلواً لا يمكن جحده لمن أظهر الإسلام أخذوا يلحدون في أسماء الله ويحرفون الكلم عن مواضعه، فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته والتقرب إليه، وهذا جهل عظيم، فإن محبة المتقرب إلى المتقرب إليه تابع لمحبته وفرع عليه، فمن لا يحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه، إذ التقرب وسيلة، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلى الشيء المحبوب هي المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة. وكذلك العبادة والطاعة إذ قيل في المطاع المعبود إن هذا يحب طاعته وعبادته فإن محبة ذلك تبع لمحبته، وإلا فمن لا يحبه لا يحب طاعته وعبادته، ومن كان لا يعمل لغيره إلا لعوض يناله منه أو لدفع عقوبة فإنه يكون معارضاً له أو مفتدياً منه، لا يكون محباً له، ولا يقال إن هذا يحبه، ويفسر ذلك بمحبة طاعته وعبادته، فإن محبة المقصود وإن استلزمت محبة الوسيلة أو غير محبة الوسيلة فإن ذلك يقتضي أن يعبر بلفظين: محبة العوض، والسلامة عن محبة العمل، أما محبة الله فلا تعلق لها بمجرد محبة العوض، ألا ترى أن من استأجر أجيراً بعوض لا يقال إن الأجير يحبه بمجرد ذلك، بل قد يستأجر الرجل من لا يحبه بحال، بل من يبغضه. وكذلك من افتدى نفسه بعمل من عذاب معذب لا يقال إنه يحبه بل يكون مبغضاً له. فعلم أن ما وصف الله به عباده المؤمنين من أنهم يحبونه يمتنع أن يكون معناه مجرد محبة العمل الذي ينالون به بعض الأغراض المحبوبة من غير أن يكون ربهم محبوباً أصلاً. وأيضاً فلفظ العبادة متضمن للمحبة مع الذل كما تقدم، ولهذا كانت محبة القلب للبشر على طبقات: أحدها العلاقة، فهو تعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة، وهو انصباب القلب إليه، ثم

---

(٨) سورة البقرة: ١١٨.

الغـرام، وهو الحب الـلازم. ثم العشق. وآخر المراتب هو التتيم وهـو التعبد للمحبــوب، والمتيم المعبـود وتيم الله عبــد الله، فـإن المحب يبقى ذاكــراً معبداً مذللاً لمحبوبـه. وأيضاً فـاسم الإنابـة إليه يقتضي المحبـة أيضاً، ومـا أشبه ذلك من الأسماء كما تقـدم، وأيضاً فلو كـان الذي قـالوه حقـاً من كون ذلك مجازاً لما فيه من الحـذف والإضمار فـالمجاز لا يـطلق إلا بقرينـة تبين المـراد. ومعلوم أن ليس في كتاب الله وسنـة رسـولـه مـا ينفي أن يكـون الله محبـوبـاً وأن لا يكـون المحبـوب إلا الأعمـال لا في الـد لالــة المتصلة ولا المنفصلة بل ولا في العقل أيضـاً، فمن علامـات المجاز صحـة إطلاق نفيـه فيجب أن يصـح إطلاق القـول بأن الله لا يحب ولا يحب كمـا أطلق إمـامهم الجعـد بن درهم أن الله لم يتخذ إبـراهيم خليـلاً ولـم يكلم مـوسى تكليمـاً، ومعلوم أن هذا ممتنع بإجماع المسلمين، فعلم دلالـة الإجماع على أن هـذا ليس مجازاً بل هي حقيقة وأيضاً فقـد فرق بين محبتـه، ومحبة العمـل له في فـوله: ﴿**أحب إليكم من الله ورسـولـه وجهـاد في سبيله**﴾[1] كمـا فـرق بين محبته ومحبة رسوله في قوله: ﴿**أحب إليكم من الله ورسـوله**﴾[2]، فلو كـان المـراد بمحبته ليس إلا محبـة العمـل لكـان هـذا تكـريـراً ومن بـاب عـطف الخـاص على العـام وكـلاهمـا على خـلاف ظـاهـر الكـلام الـذي لا يجـوز المصيـر إليـه إلا بـدلالـة تبين المـراد. وكمـا أن محبتـه لا يجـوز أن تفسـر بمجرد محبة رسوله فكذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبـة العمل وإن كـانت محبته تستلزم محبة رسـوله ومحبـة العمل لـه، وأيضاً فـالتعبير بمحبـة الشيء عن مجـرد محبة طـاعته لا عن محبـة نفسه أمـر لا يعرف في اللغـة لا حقيقة ولا مجازاً، فحمل الكـلام عليه تحـريف محض. وقد قـررنا في مـواضع من القواعد الكبـار أنه لا يجـوز أن يكون غيـر الله محبوبـاً مراداً لـذاته، كمـا لا يجـوز أن يكون غيـر الله موجـوداً بـذاتـه، بـل لا رب إلا الله ولا إلـه غيـره. والإله هو المعبود الذي يستحق أن يحب لـذاته ويعـظم لذاتـه كمال المحبـة

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

(٢) سورة التوبة: ٢٤.

والتعظيم. وكل مولود يولد على الفطرة، فإنه سبحانه فطر القلوب على أنه ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه إلا الله وحده، وإن كل ما أحبه المحبوب من مطعوم وملبوس ومنظور وملموس يجد من نفسه وإن قلبه يطلب شيئاً سواه ويحب أمراً غيره يتألهه ويصمد إليه ويطمئن إليه ويرى ما يشبهه من هذه الأجناس، ولهذا قال الله تعالى في كتابه: ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[1] في الصحيح عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ عن الله قال «إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمرَتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»[2] كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[3]. ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم**﴾[4]. وأيضاً فكل ما فطرت القلوب على محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له على الكمال، وكل ما في غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى، فهو المستحق لأن يحب على الحقيقة والكمال، وإنكار محبة العبد لربه هو في الحقيقة إنكاراً لكونه إلهاً معبوداً، كما أن إنكار محبته لعبده يستلزم إنكار مشيئته، وهو يستلزم إنكار كونه رباً خالقاً، فصار إنكارها مستلزماً لإنكار كونه رب العالمين ولكونه إله العالمين، وهذا هو قول أهل التعطيل والجحود. ولهذا اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور وحكم عن موسى وعيسى، أن أعظم الوصايا: أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك، وهذا هو حقيقة الحنيفية ملة إبراهيم التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن، وإنكار ذلك هو مأخوذ من مقال الصابئين

---

(١) سورة الرعد: ٢٨.
(٢) صحيح مسلم: باب الجنة.
(٣) صحيح البخاري :كتاب الجنائز.
(٤) سورة الروم: ٣٠.

أعـداء إبـراهيم الخليـل ومن وافقهم على ذلـك من متفلسف أو متكلم أو متفقـه أخـذه عن هؤلاء، وظهـر ذلـك في القـرامـطة البـاطنيـة من الإسماعيلية[1]، ولهذا قال الخليل إمام الحنفاء: ﴿**أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين**﴾[2] وقال أيضاً ﴿**لا أحب الآفلين**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾[4] وهو السليم من الشرك، وأما قولهم إنه لا مناسبة بين المحدث والقديم[5] توجب محبته له وتمتعه بالنظر إليه، فهذا الكلام مجمل، فإن أرادوا بالمناسبة أنه ليس بوالد فهذا حق، وإن أرادوا أنه ليس بينهما من المناسبة ما بين الناكح والمنكوح والآكل والمأكول ونحو ذلك فهذا أيضاً حق، وإن أرادوا أنه لا مناسبة بينهما توجب أن يكون أحدهما محباً عابداً والآخر معبوداً محبوباً فهذا هو رأس المسألة والاحتجاج به مصادرة على المطلوب ويكفي في ذلك المنع. ثم يقال: بل لا مناسبة تقتضي المحبة الكاملة إلا المناسبة التي بين المخلوق والخالق الذي لا إله غيره الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله وله المثل الأعلى في السماوات والأرض. وحقيقة قول هؤلاء أنهم جحدوا كون الله معبوداً في الحقيقة، ولهذا وافق على هذه المسألة طوائف من الصوفية المتكلمين الذين ينكرون أن يكون الله محباً في الحقيقة فأقروا بكونه محبوباً ومنعوا كونه محباً، لأنهم تصوفوا مع ما كانوا عليه من قول أولئك المتكلمة، فأخذوا عن الصوفية مذهبهم في المحبة، وإن كانوا قد يخلطون فيه، وأصل إنكارها إنما هو قول المعتزلة ونحوهم من الجهمية. فأما محبة الرب عبده فهم لها

---

(١) القرامطة: من الاسماعيلية الباطنية، وجدوا أنّ لكل تنزيل باطناً، مزجوا بين الفلسفة والتصوّف، وهم ملاحدة قالوا في الخالق جلّ شأنه: انه موجود ولا عالم ولا قادر، ونسبوا إلى قرمط حمدان.

(٢) سورة الشعراء: ٧٥.

(٣) سورة الأنعام: ٧٦.

(٤) سورة الشعراء: ٨٨.

(٥) يقصدون بالمحدث: العالَمْ، وبالقديم: الله.

أشد إنكاراً» ومنكروها قسمان: قسم يتأولونها بنفس المفعولات التي يحبها العبد فيجعلون محبته نفس خلقه. وقسم يجعلونها نفس إرادته لتلك المفعولات. وقد بسطنا الكلام في ذلك في «قواعد الصفات والقدر» وليس هذا هو موضعها. ومن المعلوم أنه قد دل الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة على أن الله يحب ويرضى ما أمر بفعله من واجب ومستحب، وإن لم يكن ذلك موجوداً، وعلى أنه قد يريد وجود أمور يبغضها ويسخطها من الأعيان والأفعال كالفسق والكفر، وقد قال الله تعالى: ﴿**والله لا يحب الفساد**﴾(١) وقال تعالى: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾(٢).

والمقصود هنا إنما هو في ذكر محبة العباد لله، وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان، ولم يتبين بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين(٣) لهم بإحسان نزاع في ذلك، وكانوا يحركون هذه المحبة بما شرع الله أن تحرك به من أنواع العبادات الشرعية كالعرفان الإيماني والسماع الفرقاني. قال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان**﴾(٤) إلى آخر السورة. ثم أنه لما طال الأمد صار في طوائف المتكلمة من المعتزلة وغيرهم من ينكر هذه المحبة، وصار في بعض المتصوفة من يطلب تحريكها بأنواع من سماع الحديث كالتغيير(٥) وسماع المكاء والتصدية، فيسمعون من الأقوال والأشعار ما فيه

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٥.

(٢) سورة الزمر: ٧.

(٣) التابعي: هو مَن لقي صحابياً مؤمناً ومات على الإيمان، وينتهي عصرهم بعام عشرين بعد المئتين. ومن كبار التابعين: سعيد بن المسيب (ت ٩٤) هـ، ونافع مولى بن عمرو (ت ١١٧) هـ، ومحمد بن سيرين (ت ١١٠) هـ ابن شهاب الزهري (ت ١٢٣) هـ وسعيد بن جبير (ت ٩٥) هـ، والإمام النعمان بن ثابت أبو حنيفة (ت ١٥٠) هـ.

(٤) سورة الشورى: ٥٢.

(٥) ذكر ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس» أن المغيرة قوم يغيرون ذكر الله بدعاء وتضرع، وقد وسموا ما يطربون فيه من الشعر في ذكر الله عز وجل تغييراً. وقال: كان الشافعي يكره التغيير.

تحريك جنس الحب الذي يحرك من كل قلب ما فيه من الحب، بحيث يصلح لمحب الأوتار والصلبان والأخوان والأوطان والمردان والنسوان، كما يصلح لمحب الرحمن، ولكن كان الذين يحضرونه من الشيوخ يشترطون له المكان والإمكان والخلان، وربما اشترطوا له الشيخ الذي يحرس من الشيطان، ثم توسع في ذلك غيرهم حتى خرجوا في ذلك إلى أنواع من المعاصي بل إلى نوع من الفسوق، بل خرج فيه طوائف إلى الكفر الصريح بحيث يتواجدون على أنواع من الأشعار التي فيها الكفر والإلحاد، مما هو من أعظم أنواع الفساد، وينتج ذلك لهم من الأحوال بحسبه كما تنتج لعباد المشركين وأهل الكتاب عباداتهم بحسبها، والذي عليه محققو المشايخ أنه. كما قال الجنيد[1] رحمه الله: من تكلف السماع فتن به، ومن صادفه استراح به ومعنى ذلك أنه لا يشرع الاجتماع لهذا السماع المحدث، ولا يؤمر به، ولا يتخذ ديناً وقربة، وأن القرب والعبادات إنما تؤخذ عن الرسل صلوات الله وسلامة عليهم، فكما أنه لا حرام إلا ما حرمه الله فإنه لا دين إلا ما شرعه الله. قال الله تعالى: **﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾**[2] ولهذا قال: **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾**[3]، فجعل محبتهم لله موجبة لمتابعة رسوله، وجعل متابعة رسوله موجبة لمحبة الله لهم، قال أبيّ بن كعب رضي الله عنه[4]: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله فاقشعر جلده من مخافة الله إلا تحاتت عنه

---

(١) الإمام الجنيد بن محمد أبو القاسم الخزاز (ت ٢٩٧) هـ، ولد بالعراق، تفقّه على أبي ثور وكان يفتي في حلقته، وصحب الحارث المحاسبي، وهو من أئمة القوم، ومقبول على جميع الألسنة.

(٢) سورة الشورى: ٢١.

(٣) سورة آل عمران: ٣١.

(٤) أبي بن كعب بن قيس بن عبيد (. . . - ٢١) هـ أبو المنذر: صحابي أنصاري، كان قبل الإسلام من أحبار اليهود، وفي الإسلام صار من كتّاب الوحي، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، واشترك في جمع القرآن، وله في كتب الحديث ١٦٤ حديثاً.

خطاياه كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من مخافة الله إلا لم تمسه النار أبداً، وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصاداً واجتهاداً على منهاج الأنبياء وسنتهم. وهذا مبسوط في غير هذا الموضع، فلو كان هذا مما يؤمر به ويستحب وتصلح به القلوب للمعبود المحبوب لكان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه. ومن المعلوم أنه لم يكن في القرون الثلاثة المفضلة التي قال فيها النبي ﷺ: «خير القرون قرني الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[1] لا في الحجاز، ولا في الشام، ولا في اليمن، ولا في العراق، ولا في مصر، ولا في خراسان، أحد من أهل الخير والدين ويجتمع على السماع المبدع لصلاح القلوب، ولهذا كرهه الأئمة كالإمام أحمد وغيره، وعده الشافعي من إحداث الزنادقة حين قال: خلفت ببغداد شيئاً أحدثه الزنادقة يسمونه التغبير[2] يصدون به الناس عن القرآن. وأما ما لا يقصده الإنسان من الاستماع فلا يترتب عليه نهي ولا ذم باتفاق الأئمة، ولهذا إنما يترتب الذم والمدح على الاستماع لا على السماع، فالمستمع للقرآن يثاب عليه، والسامع له من غير قصد لا يثاب على ذلك إذ الأعمال بالنيات. وكذلك ما ينهى عن استماعه من الملاهي لو سمعه السامع بدون قصد لم يضره ذلك، فلو استمع السامع بيتاً يناسب بعض حاله تحرك ساكنه المحمود وأزعج قاطنه المحبوب أو تمثل بذلك ونحو ذلك لم يكن ذلك مما ينهي عنه، وإن كان المحمود الحسن حركة قلبه التي يحبها الله ورسوله أو التي تتضمن فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه، كالذي اجتاز ببيت فسمع قائلاً يقول:

كل يوم تتلون غير هذا بك أجمل

فأخذ منه إشارة تناسب حاله فإن الإشارة من باب القياس والاعتبار وضرب الأمثال، ومسألة السماع كبيرة منتشرة قد تكلمنا عليها في غير هذا

---

(١) صحيح البخاري: باب الشهادات، صحيح مسلم. فضائل الصحابة.

(٢) تقدم تفسير التغبير في ص ٧١ عن ابن الجوزي.

الموضع، والمقصود ههنا أن المقاصد المطلوبة للمريدين تحصل بالسماع الإيماني القرآني النبوي الديني الشرعي الذي هو سماع النبيين وسماع العالمين وسماع العارفين وسماع المؤمنين، قال الله تعالى: **﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ـ إلى قوله ـ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾**(١) وقال تعالى: **﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلىٰ عليهم يخرون للأذقان سجداً ـ إلى قوله ـ ويزيدهم خشوعاً﴾**(٢) وقال تعالى: **﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾**(٣) وقال تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾**(٤) الآية. وقال تعالى: **﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾**(٥) الآية، وكما مدح المقبلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه في مثل قوله: **﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا ـ إلى قوله ـ وإذا تتلى عليه آياتنا ولىّ مستكبراً كأن لم يسمعها﴾**(٦) الآية، وقال تعالى: **﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾**(٧)، وقال تعالى: **﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾**(٨) الآية، وقال تعالى: **﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾**(٩) وقال تعالى: **﴿فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من**

---

(١) سورة مريم: ٥٨.
(٢) سورة الاسراء: ١٠٧.
(٣) سورة المائدة: ٨٣.
(٤) سورة الأنفال: ٢.
(٥) سورة الزّمر: ٢٣.
(٦) سورة لقمان: ٦.
(٧) سورة الفرقان: ٧٣.
(٨) سورة الأنفال: ٢٣
(٩) سورة فصلت: ٢٦.

قسورة﴾[1] ومثل هذا كثير في القرآن. وهذا كان سماع سلف الأمة وأكابر مشايخها وأئمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ كإبراهيم بن أدهم[2] والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني[3] ومعروف الكرخي[4] ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي وأمثال هؤلاء. وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى الأشعري[5]. يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون ويبكون. وكان أصحاب محمد إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون، وقد ثبت في الصحيح «أن النبي ﷺ مر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته وقال: لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود»[6]، وقال «مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك، فقال: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً» أي لحسنته لك تحسيناً وقال «زينوا القرآن بأصواتكم»[7] وقال: «الله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[8] أذناً أي استماعاً كقوله: ﴿وأذنت لربها وحقت﴾[9] أي استمعت. وقال ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به»[10]

---

(١) سورة المدّثر: ٤٩.

(٢) ابراهيم بن أدهم بن منصور (... ـ ١٦١) هـ أبو اسحق، زاهد مشهور، أخذ عن فقهاء وعلماء العراق والشّام والحجاز، مات في بلاد الروم.

(٣) أبو سليمان عبد الرحمان بن عُطية الداراني (ت ... ٢١٥ هـ). من أهل داريّا وهي قرية من قرى دمشق، زاهد ورع.

(٤) معروف الكرخي بن فيروز (... ـ ٢٠٠) هـ أبو محفوظ، أخذ أعلام الزهّاد والمتصوّفين ولد في كرخ بغداد واشتهر بالصلاح حتى أن الإمام أحمد بن حنبل كان يختلف اليه.

(٥) أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار (٢١ ق هـ ـ ٤٤ هـ) صحابي وأحد الحكمين اللذين رضي بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين وله (٣٥٥) حديثاً.

(٦) صحيح البخاري: فضائل القرآن، وصحيح مسلم: المسافرون.

(٧) صحيح البخاري: باب التوحيد، وسنن النسائي: الافتتاح وسنن ابن ماجة: باب اقامة الصلاة.

(٨) سنن ابن ماجة: كتاب اقامة الصلاة.

(٩) سورة الانشقاق: ٢.

(١٠) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، وكتاب فضائل القرآن، وصحيح مسلم: المسافرون.

وقال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»(١) ولهذا السماع من المواجيد العظيمة والأذواق الكريمة ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة ما لا يسعه خطاب ولا يحويه كتاب، كما أن في تدبر القرآن وتفهمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان. ومما ينبغي التفطن له أن الله سبحانه قال في كتابه: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾(٢) قال طائفة من السلف: ادّعى قوم على عهد النبي ﷺ أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾(٣) الآية، فبين سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول، وأن أتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله فإن هذا الباب يكثر فيه الدعاوي والاشتباه، ولهذا يروي عن ذي النون المصري(٤) أنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده فقال: اسكتوا عن هذه المحبة لا تسمعها النفوس فتدعيها. وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد. وذلك لأن الحب المجرد تتبسط النفوس فيه حتى تتسع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله، حتى قالت اليهود والنصارى: ﴿**نحن أبناء الله وأحباؤه**﴾(٥).

ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية، ولهذا قرن الخشية بها في قوله: ﴿**هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ، من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود**﴾ (٦).

---

(١) صحيح البخاري: باب التوحيد.

(٢) سورة آل عمران: ٣١.

(٣) سورة آل عمران: ٣١.

(٤) ذو النون المصري ثوبان بن ابراهيم أبو الفيض (... - ٢٤٥) هـ أحد الزهّاد والعبّاد المشهورين، نوبي الأصل من الموالي، وأوّل من تكلّم في ترتيب الأحوال والمقامات.

(٥) سورة المائدة: ١٨.

(٦) سورة ق: ٣٢.

وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة، والخوض فيها من غير خشية، لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة.

وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية، حتى صار المنحرفون صنفين: صنف يقر بحقها وباطلها، وصنف ينكر حقها وباطلها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه. والصواب إنما هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة، والإنكار لما فيها وفي غيرها من مخالفة الكتاب والسنة.

وقال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**﴾[1]. فأتباع سنة رسوله ﷺ وأتباع شريعته باطناً وظاهراً هي موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سبيله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها كما في الحديث «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»[2] وفي الحديث «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل المحبة»[3] وكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن أتباع السنة وعن الأمر بالمعروف وعن النهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، ويدعى مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ولا غضب لله، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة، ولهذا في الحديث المأثور «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[4]. فقوله أين المتحابون بجلال الله تنبيه على ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه والتحاب فيه، وبذلك يكونون حافظين لحدوده دون الذين لا يحفظون

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢) صحيح البخاري «الحبّ في الله والبغضُ في الله من الإيمان» ومسند الإمام ابن حنبل: ٤، ٢٨٦، ٥، ٢٤٧.

(٣) سنن الترمذي: الإقامة: «فقد استكملَ الإيمان».

(٤) صحيح مسلم: باب البرّ، والموطأ: باب الشعر.

حدوده لضعف الإيمان في قلوبهم، وهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث «حقت محبتي للمتحابين في، وحقت محبتي للمتجالسين في، وحقت محبتي للمتزاورين في، وحقت محبتي للمتباذلين في»[(١)]، والأحاديث في المتحابين لله كثيرة، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجلان تحابا في الله واجتمعا وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات نسب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين[(٢)].

وأصل المحبة هو معرفة اللّه سبحانه وتعالى، ولها أصلان: أحدهما وهو الذي يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده، وهذه المحبة على هذا الأصل لا ينكرها أحد، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، واللّه سبحانه هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة. فإنه المتفضل بجميع النعم وإن جرت بواسطة، إذ هو ميسر الوسائط وسبب الأسباب، لكن هذه المحبة إذا لم تجذب القلب إلى محبة اللّه نفسه فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه، وهذا ليس بمذموم بل محمود. وهذه المحبة هي المشار إليها بقوله « أحبوا اللّه لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب اللّه، وأحبوا أهلي بحبي »والمقتصر على هذه هو لم يعرف من جهة اللّه ما يستوجب أنه يحبه إلا للإحسان إليه، وهذا كما قالوا: إن الحمد للّه على نوعين: حمد هو شكر وذلك لا يكون إلا على نعمته، وحمد هو ثناء عليه ومحبة له، وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه. فكذلك الحب، فإن الأصل الثاني هو محبته لما هو أهل، وهذا حب من عرف من اللّه ما يستحق أن يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التي

---

(١) الموطأ: باب الشعر.

(٢) الموطأ: الشعر، صحيح البخاري: كتاب الأذان.

يعرف اللّه بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه، حتى جميع مفعولاته، إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، ولهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال، ويستحق أن يحمد على السراء والضراء، وهذا أعلى وأكمل، وهذا حب الخاصة، وهؤلاء هم الذين يطلبون لذة النظر إلى وجهه الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته، ويكون ذلك لهم أعظم من الماء للسمك، لو انقطعوا عن ذلك لوجدوا من الألم ما لا يطيقون، وهم السابقون كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: « مر النبي ﷺ بجبل يقال له جمدان فقال: سيروا، هذا جمدان. سبق المفردون. قالوا: يا رسول اللّه من المفردون؟ قال: الذاكرون اللّه كثيراً والذاكرات »[1]، وفي رواية أخرى قال « المستهترون بذكر اللّه[2] يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يوم القيامة خفافاً »، وفي حديث هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: « قال موسى: يا رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يطلب علم الناس إلى علمه. ليجد علمة تدله على هدى، أو ترده عن ردى. قال: أي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم على نفسه كما يحكم على غيره، ويحكم لغيره كما يحكم لنفسه » فذكر في هذا الحديث الحب والعلم والعدل، وذلك جماع الخير.

ومما ينبغي التفطن له أنه لا يجوز أن يظن في باب محبة اللّه تعالى ما يظن في محبة غيره مما هو من جنس التجني والهجر والقطيعة لغير سبب، ونحو ذلك مما قد يغلط فيه طوائف من الناس، حتى يتمثلون في حبه بجنس ما يتمثلون به في حب من يصد ويقطع بغير ذنب أو يبعد من يتقرب إليه، وإن غلط في ذلك من غلط من المصنفين في رسائلهم

---

(١) صحيح مسلم: باب الذكر.

(٢) أي الذين أولعوا به، لا يتحدثون بغيره.

حيت يكون مضمون كلامهم إقامة الحجة على اللّٰه، بل للّٰه الحجة البالغة. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « يقول اللّٰه تعالى: من ذكرني إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت اليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة »(1) وفي بعض الآثار « يقول اللّٰه تعالى: **﴿أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيارتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي: إن تابوا فأنا حبيبهم، لأن اللّٰه يحب التوابين. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم؛ أبتليهم بالمصائب حتى أطهرهم من المعاقب﴾**، وقال تعالى: **﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾**(2) قيل: الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسنات نفسه، وقال تعالى: **﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**(3)، وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر رضي اللّٰه عنه قال « يقول اللّٰه تعالى: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي، كلكلم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم. يا عبادي، إنكم تذنبون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي، إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك من ملكي الا كما ينقص

---

(1) صحيح البخاري: باب التوحيد، وصحيح مسلم: باب الذكر.

(2) سورة طه: ١١٢.

(3) سورة النحل: ١١٨.

المخيط إذا غمس في البحر. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد اللَّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1]، وما رواه البخاري عن شداد بن أوس قال « قال رسول اللَّه ﷺ: سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات في يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة »[2] فالعبد دائماً بين نعمة من اللَّه يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى استغفار، وكل من هذين من الأمور اللازمة للعبد دائماً، فإنه لا يزال يتقلب في نعم اللَّه وآلائه، ولا يزال محتاجاً إلى التوبة والاستغفار. ولهذا كان سيد ولد آدم وإمام المتقين يستغفر في جميع الأحوال. وقال ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري « أيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى اللَّه في اليوم مائة مرة »[3] وقال عبد اللَّه بن عمر « كنا نعد لرسول اللَّه ﷺ في المجلس الواحد يقول: رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم، مائة مرة»[4] وقال «إني لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم اثنتين وسبعين مرة»[5] وفي صحيح مسلم أنه قال «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر اللَّه في ايوم مائة مرة »[6]،ولهذا شرع الاستغفار في خواتيم الأعمال، قال تعالى: ﴿**والمستغفرين بالأسحار**﴾[7] قال بعضهم: أحيوا

---

(١) صحيح مسلم: باب البرّ، ومسند الإمام ابن حنبل: ٥ ١٦٠.

(٢) صحيح البخاري: باب الدعوات.

(٣) صحيح مسلم: باب الاستغفار.

(٤) مسند أبي داود: باب الوتر، والترمذي: باب الدعوات.

(٥) صحيح البخاري: باب الدعوات، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: والله إني لأستغفر الله، وأتوبُ اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة.

(٦) صحيح مسلم: باب الذكر.

(٧) سورة آل عمران: ١٧.

الليل بالصلاة، فلما كان وقت السحر أمروا بالاستغفار. وفي الصحيح: «أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام»[1]، وقال تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا اللَّه عند المشعر الحرام - إلى قوله - واستغفروا اللَّه إن اللَّه غفور رحيم﴾[2]، وقد أمر اللَّه نبيه بعد أن بلغ الرسالة وجاهد في اللَّه حق جهاده وأتى بما أمر اللَّه به مما لم يصل إليه غيره فقال: ﴿إذا جاء نصر اللَّه والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين اللَّه أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان تواباً﴾[3] ولهذا كان قوام الدين بالتوحيد والاستغفار، كما قال الله تعالى: ﴿الر. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير. وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً﴾[4] الآية. وقال تعالى: ﴿فاستقيموا اليه واستغفروه﴾[5] وقال تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾[6] ولهذا جاء في الحديث «يقول الشيطان: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار» وقال يونس: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾[7] و«كان النبي ﷺ إذا ركب دابته يحمد الله ثم يكبر ثلاثاً ويقول: لا إله إلا أنت، ظلمت نفسي، فاغفر لي»[8]. وكفارة المجلس التي كان يختم بها المجلس والوضوء «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» والله أعلم. وصلى الله على محمد وسلم.

---

(١) صحيح مسلم: باب المساجد، ومسند أبي داود: الوتر، وسنن الترمذي: الصلاة.
(٢) سورة البقرة: ١٩٨.
(٣) سورة الفتح: ١ - ٣.
(٤) سورة هود: ١ - ٣.
(٥) فصلّت: ٦.
(٦) سورة محمد: ١٩.
(٧) سورة الأنبياء: ٨٧.
(٨) سنن أبي داود: باب الجهاد.

فهرس
«أمراض القلوب وشفاؤها»

١ ـ حياة الشيخ ابن تيمية ٥
٢ ـ تصدير عام ٧
مرض البدن فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ١٣
مرض القلب فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته ١٤
القلب يموت بالجهل المطلق، ويمرض بنوع من الجهل ١٤
القرآن شفاء لما في الصدور، يرغب القلب فيما ينفعه عما يضره . . ١٦
القلب يزكو بما ينفعه، كما ينمو الزرع بما ينفعه ١٦
الزكاة والتزكية، والعدل والاعتدال، والعمل الصالح والعمل السيء ١٨
الظلم من أمراض القلوب، والعدل صحتها ١٩
صلاح القلب هو حياته واستنارته ٢٠
ضربْ الله مثلاً للإيمان بالنار والنور، وبالماء والزبد ٢٢
القلب الحي المنور يسمع ويبصر ويعقل، والميت لا يسمع ولا يبصر ٢٣
للكفر والنفاق شعب، كما أن الايمان ينقسم الى شعب ٢٤
الايمان على سبيل الإجمال لا يكفي عن تفاصيله وجزئياته ٢٦
معنى ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ ٢٧
حياة القلب شرط في العلم والارادة والقدرة على الأفعال الاختيارية ٢٨
ومن أمراض القلوب الحسد ٣١
التنافس قد يكون محموداً إذا كان في الخير ٣٣
منافسة عمر لأبي بكر في بذلهما للاسلام ٣٥
من أسباب استحقاق أبي عبيدة صفة «أمين الأمة» ٣٦

حديث «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» وبماذا استحق ذلك ٣٧
الحسد مذموم كله ٣٨
صبر المؤمن على الأذى في سبيل ما آمن به ٤٠
الهوى قد يكون عارضاً وفساد القلب هو المرض ٤٣
الشح مرض، والبخل مرض، والحسد شر من البخل ٤٥
مرض الشهوة والعشق ٤٦
القلب انما خلق لحب الله، وحب ما يحبه الله، وتلك هي الفطرة . ٤٨
الرسل بعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغييرها وتحويلها ٤٩
صلاح الانسان في (العدل)، وفساده في (الظلم) ٥٢
ليس اللذة والألم نفس الاحساس والإدراك، بل ثمرتها وغايتهما ... ٥٤
طب الأديان يحتذي حذو طب الأبدان ٥٥
التقوى هي «الاحتماء» عما يضر، بفعل ما ينفع ٥٧
﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ [١٢٣ النساء] ٥٨
لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا خيراً له: إن أصابته سراء فشكر كان خيراً
له، وإن اصابته ضراء فصبر كان خيراً له ٥٩

فهرس
(التحفة العراقية في الأعمال القلبية)

أعمال القلوب (أي محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له) هي من أصول الإيمان وقواعد الدين ٦٤

المسلمون في أعمال القلوب على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات ٦٤

البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ٦٥

من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ٦٦

من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها ٦٧

الصدق والتصديق يكونان في الأقوال وفي الأعمال ٦٨

الاخلاص هو حقيقة الاسلام، والاسلام هو الاستسلام لله ٧٠

الحلال بين، والحرام بين... فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه. وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله.. وهي القلب ٧١

الحزن لم يأمر الله به ولا رسوله ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا، وأنتم الأعلون**﴾ ٧٢

حق الله على العباد، وحق العباد على الله ٧٤

العبادة لا تصلح الا الله. فرح الله بتوبة عبده ٧٤

الزهد المشروع ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة، والورع المشروع ترك ما قد يضر في الدار الآخرة يقدر الله الأمور ويقضيها بالأسباب التي جعلها معلقة بها، كما في الحديث «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له» ٧٦

تقسيم الكلمات، والأمر، والإرادة، والإذن، والكتاب، والحكم، والقضاء والتحريم - إلى كوني وشرعي ٧٧
العواقب التي خلق الله الناس لها سعادة وشقاوة ييسرون لهما بأعمالهم الطيبة أو الخبيثة **﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** ٢١ الجاثية. **﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم نجعل المتقين كالفجار﴾** ٢٨ سورة ص. **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾** ٩ الزمر ٨١
المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير ٨٤
قال طائفة من العلماء: الالتفاف إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع. وإنما التوكل المأمور به ما يجمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع ٨٤
أهمية الصبر في الإسلام، وقد ذكر في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً ٩٠
الرضا بالقضاء وأنه من أعمال المقربين والمقتصدين. وقد فسر الحمد بالرضا ٩١
من سعادة ابن آدم استخارته لله، ورضاه بما قسم له ٩٥
من الناس من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس ٩٦
محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الايمان وأكبر أحواله، بل هي أصل كل من أعمال الإسلام ٩٧
محبة الله تقتضي طاعته في كل ما أمر به ونهى عنه، وذلك هو أصل الدين، وكماله بكمالها، ونقصه بنقصه ١٠٥

في الحديث القدسي الصحيح «لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش، وبي يمشي. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاني لأعيننه» ١٠٧

الاتحاد المطلق الذي هو قول أهل «وحدة الوجود» هو تعطيل للصانع وجحود له وهو جامع لكل شرك إذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء يستلزم المحبة ويرجع اليها ١١٠

الدنيا دار استدراج، والنار دار العذاب الخالص، والجنة دار الرحمة الخالصة، وأعلى نعيم الجنة النظر إلى وجه الله ١١١

قول أبيّ بن كعب: إن اقتصاداً في سبيل وسنة من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم ـ اقتصاداً واجتهاداً ـ على منهاج الأنبياء وسنتهم ١٢١

السماع الشرعي هو سماع الصحابة والتابعين لكتاب الله بخشوع وتدبر وبصيرة، والسماع البدعي ما أحدث بعد ذلك مما سمي (التغبير) ١٢٤

من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ١٢٥

الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة، وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال ١٢٦

أصل المحبة معرفة الله، وهي قسمان: محبة العامة لأجل إحسانه ومحبة الخاصة وهي محبته لما هو له أهل، وهي محبة الذين يطلبون لذة النظر إلى جهة الكريم، ويتلذذون بذكره ومناجاته ١٢٧

في الحديث القدسي «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن

ذكـرني في ملأ ذكـرته في مـلأ خير منـه، ومن تقرب إلي شبـراً تقربت اليه ذراعاً» ١٢٨
في حـديث آخـر «يـا عبـادي إني حـرمت الـظلم على نفسي وجعلتـه بينكم محـرمـاً. فـلا تـظالمـوا. يـا عبـادي كلكم ضـال إلا من هـديته فـاستهـدوني أهـدكم. يـا عبـادي كلكم جـائـع إلا من أطعمتـه، فاستطعموني أطعمكم» ١٢٨
كـان النبي ﷺ إذا انصرف من صـلاته استغفـر الله ثـلاثـاً وقـال: اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام ١٢٩